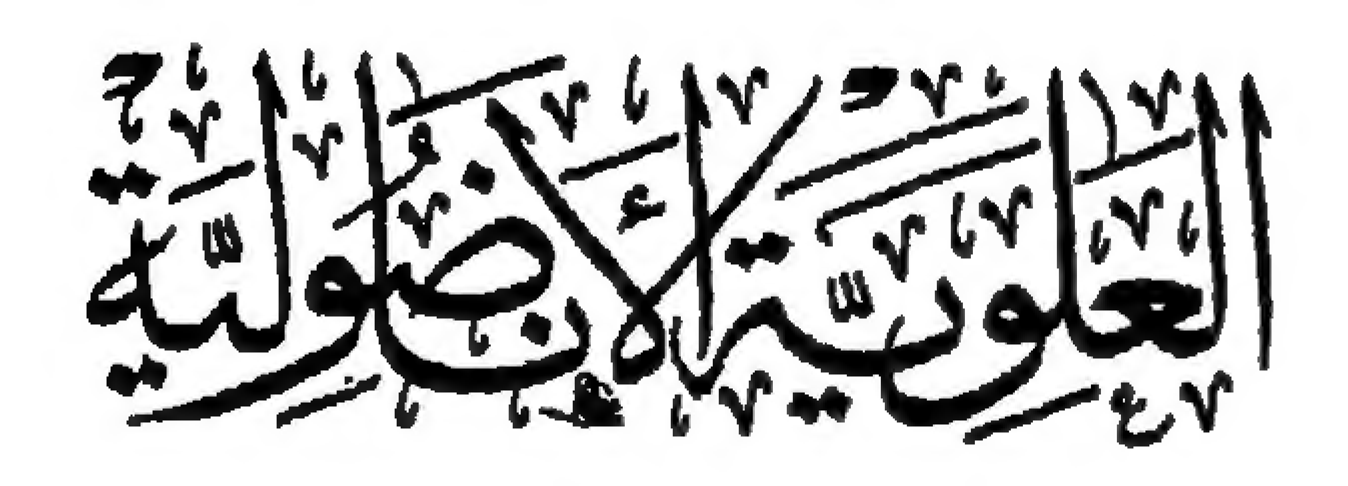


العلوية الأناضولية

أسد خياط


العلوية الأناضولية

الكتاب : العلوية الأناضولية

المؤلف : أسد خياط

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٠

رقم الإيداع : ٢٠١٠/٧١٤٤

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 031 - 7

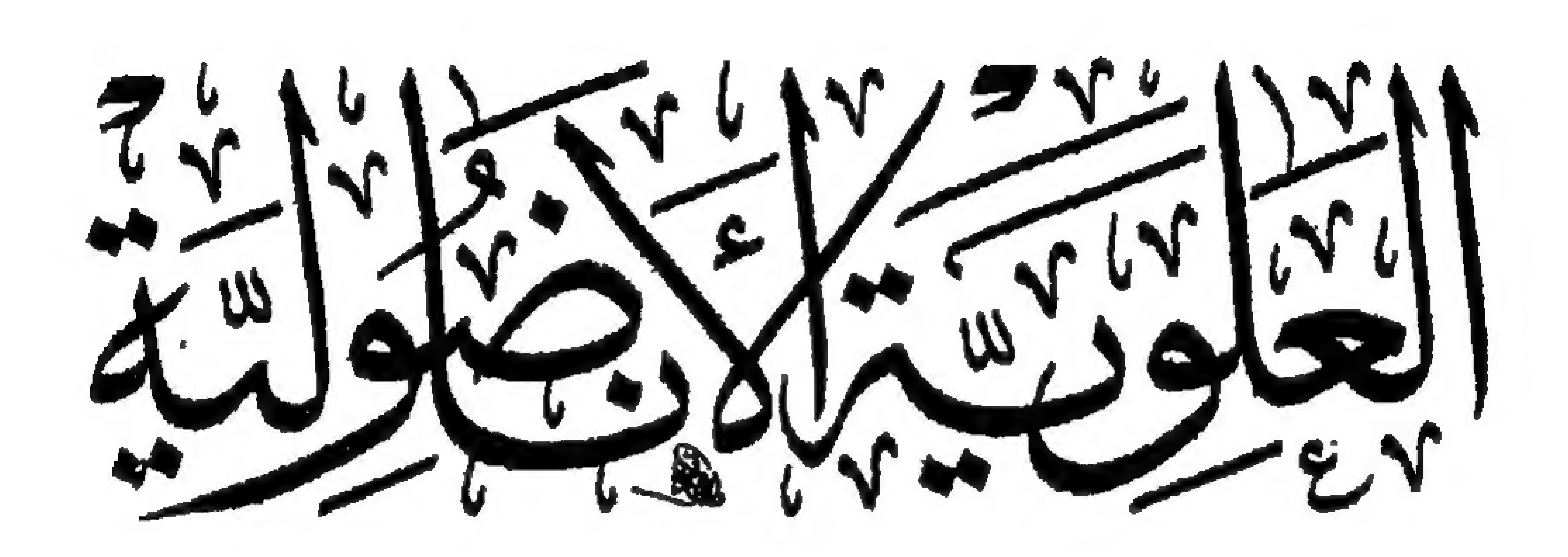
الناشر

شمس للنشر والتوزيع

٨٠٥٣ ش.٤٤ الهضبة الوسطى-المقطم-القاهرة

ت/فاكس: ٢٧٢٧٠٠٠٤(٠٢)-٦٤/٠١٨٨٨٩٠٠٦٥(٠٢)

www.shams-group.net



أسد خياط



شكر

أشكر كل من شجع هذا العمل وساهم في إنجاحه:

لروح الدكتور إبراهيم الداقوقي ولنصائحه ولمراجعته الكتاب وللمقدمة الجميلة..

الأستاذ فيصل حوراني لمساهمته ونصائحه القيِّمة..

الدكتور حيدر ساري..

لروح الصديق الفنان موريس صبري..

وأخيرًا وليس آخرًا أشكر ماري تيريز كرياكي التي انتشلتني من الكسل..

وأهديها إلى سوريا وطن الآباء والأجداد وإلى النمسا وطن الأبناء والأحفاد..

وإلى مارلين المرأة والرجلين زينون وسيروس..

المقدمة

عندما كلفتني مديرية العلاقات الثقافية الخارجية – التابعة لوزارة الثقافة النمساوية – ومقرها في أمانة العاصمة (فيينا) أواخر العام ٢٠٠٣، بمراجعة كتاب (العلوية الأناضولية) للأستاذ أسد خياط وكتابة مقدمة له، ترددت في بداية الأمر لسببين:

الأول– إنني لستُ كاتبًا إسلاميًا بالمعنى الدقيق؛ وإنما أكاديمي إعلامي وكاتب متخصص بالشؤون التركية.

الثاني– لأن التكليف يتضمن قيامي بترجمة الكتاب من العربية إلى التركية، لأن الكتاب سيصدر باللغات العربية والتركية والألمانية والإنكليزية. ولكن رغبتي في إحاطة القارئ العربي والأجنبي ببعض جوانب الفلسفة العلوية – التي أعدها فرقة إسلامية علمانية وطريقة صوفية متميزة لأنها بعيدة عن الدروشة والخرافات – هي التي جعلتني أقبل هذه المهمة الشاقة.

بعد قراءتي لمسودات الكتاب قارنتها بالمصادر التركية – منذ نشوء الفكر العلوي في مناطق آسيا الوسطى – مرورًا بإيران وبلاد الهلال الخصيب – امتدادًا إلى المغرب الأقصى، ثم تطورها على أيدي الشيوخ الأوائل: أحمد اليسوي ويونس أمره والحاج

بكتاش ولي والإيراني لقمان بارندة والعربي أبو عبد الله حسين بن حمدان الخصيبي – حتى سميت النصيرية بالخصيبية – والعراقي فضولي البغدادي، عروجًا إلى ذكر الفِرَقْ العلوية المنتشرة من سهوب آسيا الوسطى إلى المغرب الأقصى. كما تناولت الأتنوغرافية العلوية العادات والتقاليد ومراسيم أداء الصلاة (المقابلة) والصيام والأعياد والحج، وفق نظرتهم العلمانية وطريقتهم الخاصة في ممارسة الشعائر – التي تختلف بين فرقة وأخرى، بل وبين قرية وأخرى – وصولاً إلى الثالوث المقدس (الله – محمد – علي) حيث يمر الواصل – أي شيخ الطريقة – من خلال الأبواب الأربعة والدرجات الأربعين، ليحقق ذاته ويصبح خليفة الله على الأرض، لأن صورة الحبيب الجميلة تتجلى على وجهه ووجه الطبيعة معًا.

ولقد وجدت أن الأستاذ أسد خياط، قام بدراسة تحليلية لنشوء الديانات والمذاهب وتطورها على أيدي الكهنة، ثم استغلالهم لها لتكون وسيلة السلطة للقهر والاستبداد، ومن هنا فإن الأستاذ خياط يؤمن بأن "الإيمان الديني غير الموظف سياسيًا أو سلطويًا، لا يمكن أن يكون وسيلة للصراعات، وبالتالي لا يرفض الآخر أو يقصيه، ومن هنا فإنه لا يكون – أيضًا – أصوليًا أو تكفيريًا للآخر، مهما كان اختلافه معه، أو نقده لسلوكه".

فكانت هذه هي المقدمة للكتاب، التي أود أن أؤكد فيها، وبغضّ النظر عن الأفكار التي أوردها المؤلف حول الإسلام – وهي لا

تزال موضوع جدل بين المستشرقين ورجال الفكر العربي الإسلامي – بأن الأستاذ أسد خياط، مؤلف الكتاب قد بذل جهدًا كبيرًا من أجل الإحاطة بمعطيات الفلسفة العلوية، وجمع شتات تلك الفلسفة وتقديمها للقارئ العربي والأجنبي بشكل علمي مرموق، من خلال الانتقادات والبحوث التي ما تزال موضع النقاش حتى اليوم. ففي تناوله للتناقض القائم في تطبيق الدين الإسلامي وشرائعه بين خلفاء الرسول وخلفاء الخلفاء من بعدهم وبين الإمام علي بن أبي طالب – وخلفائه من بعده – يؤكد خياط: "وبدأت التناقضات بين (لا إكراه في الدين) وبين (من يبتغ غير الإسلام دينا، فلن يقبل منه) مما خلقت فجوات دائمة في تاريخ الإسلام، فأعطت فرصة لمحترفي السياسة ورجال الدين لتبرير مواقف يجدون لها في أحد النقيضين عونًا دائمًا لهم لتنفيذ أغراضهم".

ويقول خياط: وبعد اختلاف المسلمين حول تدوين القرآن و"لاستحالة التوفيق الظاهري بين الدين والأخلاق من جهة، وبين السلطة السياسية من جهة أخرى، كان لا بد من التأويل – ولذلك وصف الإمام علي، القرآن بحمّال أوجه، ويعتقد العلويون أن الإمام قصد بذلك قرآن عثمان – فأصبح هناك ما يعرف بالظاهر والباطن عند الشيعة، على اختلاف مذاهبهم، وكذلك عند العلوية. وغدا القرآن للكثيرين من المتأولة، ليس ذلك القرآن الإلهي الخير .والحق والعدل فقط، بل الشر والباطل أيضًا، فهو رمز الوجود بخيره

وشره النسبيين، فقد تكلم الله والأنبياء من خلاله من جهة، وفرعون وإبليس من جهة أخرى، وبقي القرآن الإيماني الديني، وليس التاريخي السياسي (التشريعي) هو الخير المطلق، والحق المطلق، الذي أوحي به للرسول محمد وطبَّقه الإمام علي بأقواله وأفعاله، كتابًا مفتوحًا تسطر فيه الحقيقة المستمرة ما استمر الكون، وهو ما يعتقده العلويون الأناضوليون".

وإذا كنت أعُرِّف العلويين، باعتبارهم فرقة إسلامية معتدلة وسائرة على نهج الإمام علي بن أبي طالب وخلفائه من بعده مع التمسك الشديد بتعاليم الإسلام الإيماني المدافع عن المظلومين والساعين إلى رفع الظلم والحيف عن كل الناس وفي كل زمان ومكان... فإن الأستاذ خياط قد تناول الفكر العلوي الأناضولي بالتحليل والدراسة، من خلال الملابسات التي غلفت اختيار الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل، عندما "صدَّعت سقيفة بني ساعدة الجسم الإسلامي: بين المهاجرين والأنصار وبين الأوس والخزرج وبين قريش وبني هاشم. وانتهى ما تحقق على يد الرسول، إلى غنيمة يتصارع عليها المتصارعون، وبذلك فقد كرست السقيفة الربط بين الإسلام الإيماني، والسلطة السياسية (بمقولة الإسلام دين ودولة) فأصبح الإسلام – منذ ذلك الحين – مطية لساسة ومغامرين". وبعد أن يتطرق خياط إلى الانتهاكات التي رافقت التطبيقات تحت شعار "الإسلام الإيماني، الذي بدأه الرسول في شعاب مكة لرفع الظلم

والحيف عن الناس أجمعين، في كل زمان ومكان" لينتهي – من كل ذلك – إلى أنه "لن يكون الإسلام، كما أراده الرسول سوى بخروجه من كل دهاليز السياسة وعودته إيمانًا شخصيًا وخاصًا، وليس أمرًا عامًا وبضاعة تباع في الأسواق" وهو الأمر الذي تحقق في خلافة الإمام علي بن أبي طالب، وهو الخليفة الحق في الزمن الخطأ، وإلا لما تساءل مستنكرًا: "أأعصى ويطاع معاوية". فقد سار الإمام علي على خطى الرسول، فكان على دين لم يرش ولم يرتش، ولم يقطع البلدان والأمصار، ولم ينهب ويسلب ويهب محازبيه... وإذا كان ثمة من يصف تاريخنا بالمجلي والمشرف العظيم، نعم قد يكون بعضه كذلك، ولكن ليس برجال ونساء كطلحة والزبير وخالد، وبأبطال السقيفة، بل بعلي وبآل البيت وبالحلاج وابن عربي وابن رشد وابن سينا والفارابي وغيرهم الكثير. فقد كان الإمام علي، فيلسوف الأخلاق وممثل العدالة الإلهية، القائمة بذاتها على معنى الإنسان ومعنى الطبيعة (الكون) معًا.. لأن كل دين وشريعة وقانون وفكر وفن وأخلاق، عند الإمام، هي من أجل الإنسان، فهي تخدم تطوره المستمر، وهو بدوره يطورها فهي ليست أصنامًا ليمجدها، بل فعل حيوي مستمر على طريق الإنسانية السائرة نحو أهدافها العليا للتقرب من الله، أوَ ليس هو القائل: "إن قومًا عبدوا الله رغبة في النعيم، فتلك عبادة التجار، وإن قومًا عبدوا الله رهبة من الجحيم، فتلك عبادة العبيد، وإن قومًا عبدوا

الله شكرًا، فتلك عبادة الأحرار".. فقد كان الإمام أبًا لعلم الكلام وأصل التصوف الإسلامي، حيث نجد جذورهما في ممارساته وأقواله، لإنه لم يحمل على جريح ولا تبع فارًا ولا استعبد أسيرًا ولا سبى امرأةً ولا نهب مالاً أو أرضًا، وعندما قتل لم يورث أهله شيئًا، ولكنه ترك أقوالاً حارب بها الباطل، سواءً أكان قانونًا أو دينًا أو شريعةً، كما ترك أفعالاً أمثلة، سار على خطاها العلوية الأناضولية ولا يزالون يسيرون عليها إلى اليوم". ومن هنا يؤكد خياط أن "العلوية الأناضولية هي تعاليم ودين وصوفية وفلسفة وثقافة وفنون وسلوك في آن. وهي غير نهائية، بل قابلة للتطور فيما يصب بإنسانية الإنسان وكرامته".

وبذلك فقد حقق خياط، فتحًا جديدًا في حقل الأنثروبولوجيات الشرقية بخاصة والأتنوغرافية الإسلامية بشكل عام، رغم عدم اعترافه بالعلوية كفرقة دينية وكطريقة صوفية إسلامية – وهو الأمر الذي يؤكد عليه معظم الباحثين، إضافة إلى رئيس اتحاد العلويين البروفيسور عز الدين دوغان – لأن خياط يعدها دينًا جديدًا، له طقوسه وشعائره وكتبه الخاصة، عندما يقول: "ويؤكد معظم العلويين أنهم ينتمون إلى دين قائم بذاته"، وهي فكرة جديدة تحتمل المناقشة والأخذ والرد على المستويين الاجتماعي والسياسي معًا، ليست هذه المقدمة مجال بحثها. لاسيما وأن ثمة رأيين للباحثين الأتراك حول العلوية: يعتقد أصحاب الرأي الأول بأن

العلوية مذهب من مذاهب غلاة الشيعة كالعليّ الإلهية والحروفية والبكتاشية والكاكائية والخلوتية والشبك، في حين يذهب الرأي الثاني إلى أن العلوية مزيج من الأفكار الإشراقية والملامح الصوفية الشّرقية وبقايا الشامانية والزردشتية واقتباسات القبالة اليهودية والمقدسات المسيحية، ولذلك فليست للعلوية أية علاقة بالدين الإسلامي وإنما هي عقيدة خاصة وفلسفة إنسانية فريدة. ولا تزال هاتان النظرتان، هما السائدتان في الأوساط الفكرية – الاجتماعية التركية، رغم رجحان كفة النظرة الأولى بعد تصريحات البروفيسور عز الدين دوغان، رئيس اتحاد الجمعيات العلوية، إلى صحيفة حريت التركية عام ٢٠٠٣. لاسيما وإن العلويين الأناضوليين، متعددي المشارب ومختلفي الشعائر والاتجاهات، يجمعهم الإيمان بالله وبالرسول من خلال أداء الشهادتين وحب آل بيت الرسول، والالتزام بالمثل الأخلاقية الإسلامية والعلمانية المتسامحة التي تحترم الذات والآخر. ومن هنا، فإن الأستاذ خياط يعدّها فوق الأديان والمذاهب والطرق، بل إنه اعتبرها ديانة جديدة – وهي فكرة جديدة وقديمة ناقشها المفكرون ولا يزالون – جديرة بالدراسة والتأمّل. كما قام الأستاذ خياط بإجراء المقارنة – والمقاربة – بين العلوية التركية والعربية – نقصد النصيرية – لإعطاء فكرة شاملة عنهما.

وإذا كانت البروفيسورة المسيحية الكاثوليكية الروسية آيرين مليكوف، رئيس كرسي التصوف الإسلامي في جامعة السوربون، ومن مريدي البكتاشية العلوية قد نشرت الدراسات العديدة حول آرائهم الفكرية وأدبيات التصوف البكتاشي، وقام المسيحي الأرثوذوكسي اللبناني جورج جرداق بتأليف أعظم دراسة في خمسة مجلدات عن الإمام علي بن أبي طالب، فإن الكاتب السوري العلماني أسد خياط، قد قام من خلال كتابه هذا، بنبذ كل الشوائب التاريخية الملصقة بالرسول، ودعا إلى تنقية التاريخ العربي الإسلامي من تلك الشوائب، وما لحق به من اتهامات وخرافات.

وإننا إذ نتقدم بهذا البحث العلمي للقارئ الكريم، نتمنى أن يثير النقاشات حول الإصلاح الديني والتصالح الاجتماعي، ولإجراء المصالحة الفكرية بين الإسلام والعلمانية – كما دعا إليها المعتزلة – نبذًا للتزمت الديني وللابتزاز المتبادل للإسلام بين النظام ورجال الدين المتشددين على اختلاف درجات تشددهم، على أمل أن يكون مدخلاً متواضعًا للدراسات الأنثروبولوجية المستقبلية التي تحتاجها أدراج المكتبة العربية الحديثة.

إبراهيم الداقوقي

مدير المركز الأكاديمي للدراسات الإعلامية وتواصل الثقافات – فيينا

تمهيد

هناك دوافع كثيرة وملحة دفعتني للكتابة عن العلوية الأناضولية كتعاليم وفكر وثقافة؛ ربما لتعرض هذه الجماعة لظلم تاريخي غير مبرر، ولعدم استطاعتي السكوت عنه أو عن المغالطات، وسوء الفهم الذي يروّج له باحثون وساسة ومؤرخون، مما يعرّض هذه الجماعة لمزيد من الافتراءات، وربما لهزء الجماعات الدينية بعضها ببعض، ومحاولة كل منها احتكار الحقيقة، ورمي الآخرين بالباطل، أو لأني أرى دائمًا وبالمطلق أن القتل أمرًا مأساويًا وباعثًا على الحزن العميق، في حين أجد من يبرر القتل، ويستهين بحياة الإنسان وكرامته، حتى بسبب كلمة، "أنا الحق" قالها أبو منصور حسين الحلاج، وتدافعت الجموع ببغداد لتشهد الملهاة التي دعت إليها السلطة، والمؤسسة الدينية لقتله، فقُطعت يداه ورجلاه وصُلِبَ، ودَعَتْ السلطة الشهود لرجمه، فامتنع بعضهم فهددوا، فرماه الشبلي بوردة حمراء وهو يبكي ويقول: "كتمنا وباح"، ثم قطعوا رأس الحلاج وأحرقوه وذروا رماده في دجلة، وبدأت محاولات تدمير آثاره وفكره، فلم يجرؤ أحد على ذكر الحلاج لمئات السنين ليصبح بعدها ملهمًا في الفن والثقافة والتصوف.

وتكرر الحدث حين تدافعت الجموع في دمشق لتشهد الملهاة التي دعت إليها السلطة والمؤسسة الدينية، للتهكم على الإله المعلّق على حبل المشنقة لقوله: "أنا الحق"، ثم بدأت بتشويه سمعته ولم يجرؤ إلى الآن، حتى ولا المؤرخون، على تناول قضية سليمان المرشد، اتُفِقَ مع صبري العسلي رئيس وزراء سوريا آنذاك على أن يُسلم سليمان المرشد نفسه ليُحاكم رمزيًا ثم يُطلق سراحه خلال أسابيع، وعندما حُكم على المرشد بالإعدام نظر إلى العسلي مستنكرًا وقائلاً: "ما هكذا اتفقنا"، فرد عليه العسلي: "أخي! حقك علينا، ازرعها بذقنا هذه المرة". مثلما تدافعت الجموع في القدس - سابقًا - بدعوة من الاستعمار الروماني لتشهد الإله المعلق على خشبة الصليب لقوله: "أنا الحق" وتشمت به.

وفي النهاية، ربما لأن روحي مليئة بحب كل العقائد بما هي بستان يحوي ورود العالم وثماره، فأرعاها وأرويها من القلب وجدًا وحبًا ليعبق عطرها وأريجها في أرجاء الكون، وأقول كما قال الحلاج:

عَقَدَ الخلائق في الإله عقائدًا وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

"أنا الحق"، قالها الحسين بن علي فكانت مجزرة كربلاء، قالها نسيمي الشاعر المقدس عند العلوية فسُلِخ جلده حيًا، قالها السهروردي فقتله صلاح الدين الأيوبي، الذي قتل عشرات الآلاف في مصر والقاهرة خاصة، ليقضي بذلك على كل أثر للشيعة الفاطمية في مصر وشمال أفريقيا، هؤلاء وغيرهم الكثير، قتلوا

لأن ناس السلطة رأوا فيهم خطرًا ماحقًا عليهم، لأنهم أعدُّوا للانقلاب على الفساد والفاسدين المحتكرين للامتيازات الدينية والدنيوية، وتبعتهم جموع الفقراء بعد أن رأوا فيهم المُخلصين الذين أعادوا للإنسان المُهان كرامته المهدورة.

"أنا الحق"... إلهٌ، الناس جميعًا لديه متساوون، وجميع العقائد عقائده، إلهٌ لا يُحتكر ولا يُسجن في كتاب، إله ليس غائبًا أو مُغَيبًا لينوب عنه راعٍ يرعى رعيته باسمه، ويسوقها بعصاه الغليظة، إلهٌ يقبل التشكيك والنقد، لأن هدفهما إظهار الحقيقة، وليس إله هذا الشيخ أو ذاك المفتي المتحدثين باسمه جاعلينه عدوًا للإنسان والإنسانية، والمخالف خائن وكافر، وعلى الفرد أن يلغي ذاته ليكون موجودًا فقط ضمن الجماعة، فالفردية معدومة، والفكر المتميز عن رأي الجماعة معدوم، وعلى الفرد الخضوع لحزمة العادات والتقاليد والإرث الديني السياسي الأيديولوجي، لأن الديمقراطية وحقوق الفرد لا ينسجمان مع حقيقة هذا الإله. وفي تصارع القبائل، أصبح لكل قبيلة إله تحارب من أجله أو يحارب من أجلها، ولكل مذهب إله، ولكل دين إله. وشرعية محتكري الإله كتاب يضعونه في جيوبهم ليخرجوه في الوقت الملائم، ليقولوا قال الله، وهم في الحقيقة ينطقونه ما يريدون تمامًا ثم يطوى الكتاب ويُعاد الإله إلى الجيوب، بعد أن يؤدي مهمته. وقد زوَّد هذا الإله رعيانه بالعصي والسيوف، وبقوتها وتهديدها تصبح فتاويهم

شرعية إلهية، وفي كل هذا على الإنسان الفرد أن يخضع خضوع العبد، ويلغي هذا الإله أو المتحدث الرسمي باسمه كل الحقائق الكونية ونسبيتها للزمان والمكان، ما عدا الحقيقة التي يريدها هو، إنه أمر سهل طالما أن هذا الإله قد قال كل ما عنده في نصوصه المقدسة، وخلد إلى الصمت. أعطى هذا الإله قبل أن يصمت ذوي اللحى والعمائم توكيلات رسمية، وزوّدهم بمفاتيح السماء، بها يُدخلون إلى جنة إلههم من يريدون، ويحكمون على الآخرين بالكفر والجحيم، وفي كل هذا غُيّب العقل، فما حاجة هكذا فكر إلى العقل، "اسمعوا أنتم وأطيعوا فكلامي هو كلام الله"، وهكذا أصبح الله الواحد بضاعة مزدهرة، تباع الفتاوى وتشرى باسمه، فتبنى الكثير من الجماعات مبدأ التقية دفعًا للأذى، ولكن احتكار الحقيقة والتضييق على الآخر المختلف وإرهابه بل وتدميره لا تشمل كل الديانات والمذاهب، مثلاً: العلوية الأناضولية.

من نافل القول إن تركيا لا تعترف بحقوق الأقليات القومية والدينية من أكراد وأرمن وعلويين وغيرهم، وتزداد الصورة وضوحًا عندما ندرك أن أحد الأسباب الجوهرية لعدم اعتراف السلطات التركية بهذا الطيف الإثني والديني المتعدد يكمن في انعدام الممارسة الديمقراطية وتغييب حقوق الإنسان هناك.

تاريخيًا، أدَّت الضغوط العثمانية من جهة، وضغوط الدولة التركية الحديثة من جهة أخرى، إلى بروز الهوية العلوية الأناضولية

وتناميها بإطراد، وبدأت حركات ومنظمات علوية وكوادر مثقّفة بطرح مطالبها جهارًا وعلانية، بعد أن ظلّت ردحًا من الزمن تمارس فيها مبدأ "التقية"، على الرغم من أساليب القمع والتهميش المختلفة التي تمارسها السلطات التركية بحقها، حتى أن دول المجموعة الأوروبية بدأت تعي مشاكل هذه الأقلية المضطهدة، وأهمية الدعم والتأييد لمطالبها المشروعة.

في المقابل، بدأت الأقلية العلوية تحصل على تأييد متزايد في النطاق الأوروبي، وتكسب عددًا من المؤيدين لمطالبها، خصوصًا أن الثقافة العلوية وفكرها وتعاليمها تؤكد على التزامها الديمقراطية كنهج، وحقوق الإنسان كممارسة، تمقت العنصرية والعنف ولا تحتكر الحقيقة، وبالتالي تعكس نموذجًا لإنسانية الثقافة الشرقية التي تسعى إلى التكامل مع غيرها من الثقافات.

أسد خياط

فيينا
٢٠٠٦/٩/١

مدخـل

في لحظة ما، انفصل مخلوق لتوه عن أقرانه في منطقة ما بخصائص فائقة أخذت تتزايد، فقد استوى واقفًا فتحررت يداه ليحمل أطفاله وطرائده، وجمع الثمار، واستعمل الآلة (حجارة، وعظام، وعصي)، وشرع يتكلم مفردات لغة ما ويتوسَّع بها، وروَّض النار والحيوان، واكتشف الزراعة، وبنى مسكنًا مجاورًا أقاربه وأسرًا أخرى، مُشكِّلاً أولى القرى، واستبدل شريعة الغاب بأعرافٍ وقيم تخدم هذا المجتمع، وبدأ أولى محاولاته لتفسير نشأة الكون والحياة، وآمن بقوى خارقة مسيطرة يجهلها، تُدير عملية الخلق الدورية والمستمرة في النبات والحيوان، ومسيرة الشمس والقمر والنجوم والمواقيت.

وقدَّس هذه القوى، ونشأت الأسطورة التي كانت أولى بذور الدين، وربما كانت هي الدين، وبنى المدينة ومنها جاءت المدنية والتمدن، واكتشف الكتابة، ودوَّن أعمال الآلهة خيرها وشرها، وشيَّد المباني والمعابد، وقدَّم القرابين، وتشكَّلت الدول، وازدهرت الفلسفات والفنون، وتراكم الإرث الفكري والمعرفي، وتعدَّدت القيم والتشريعات والآلهة بتعدُّد المجتمعات، ونشأت الأيديولوجيات الدينية

والقومية، وبدأت فلسفة احتكار الحقيقة والأخلاق، ورُفض مبدأ تعدُّدها بتعدُّد الحضارات والثقافات، ونسبيتها للزمان والمكان عند الموحدين تحديدًا.

كلّ هذا أدَّى لسوء فهم ونزاعات على الأرض كما على السماء، وأريقت دماء ولا تزال، ومُورست عنصرية باسم هذا الدين أو ذاك، ورفض كثيرون أن يكون الإنسان هو صاحب القيمة العليا في الكون، والذي يضفي القيم والقداسة على ما عداه، وأن الدين والفلسفة والعلم والفن ومفاهيم الأخلاق ما هي إلاّ وسائل لتخدم هذا الإنسان، أما الهدف فهو الحياة واستمراريتها بكرامة تليق بعقله وعواطفه، حياة حرّة مسؤولة متناغمة مع الإنسان الآخر والمختلف، ومع الطبيعة.

الفرعون آمون حوتب الرابع، كان من أوائل الدعاة للإله الواحد وجعل آتون (الشمس) كرمز له، وتسمى أخن آتون وذلك في القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

أصبحت الدعوة للإله الواحد مركزية في الديانات الإبراهيمية وتفرعاتها، وارتبطت ديانات التوحيد بالسلطة منذ بداياتها، وسمّى إخناتون نفسه ممثلاً لهذا الإله الواحد، وظلّه على الأرض، وتتالى بعده رسلٌ، أنبياء أو ملوك، شرَّع إخناتون الشرائع باسم هذا الإله، واحتكر الحقيقة الإلهية مانعًا التعبد للآلهة الأخرى، وأمر بهدم

معابدها، وعندما واجه اعتراضًا من المؤمنين بهذه الآلهة، شنَّ إخناتون ضدهم أول حرب دينية تكفيرية عرفها التاريخ تقودها السلطة على تعدُّدية الآلهة والحقائق، وقد اتَّبع الكثيرون منذ ذلك التاريخ ولأول مرة مبدأ التقية، فكانت الديانات السريَّة وأسرار الديانات.

ومن مصر إخناتون (الموحّد الأول)، انطلق العبرانيون الموحدون يحملون فكره باتجاه فلسطين، لاحتلالها كأمر إلهي للنبي موسى، (معناها الآرامي: المنتشل من الغرق أو من الماء) الناطق باسم يهوه، فكانت الحرب الدينية الثانية والمرتبطة أيضًا بالسلطة، وهدموا معابد الآلهة الأخرى، وقتلوا كهنتها، ولاحقوا أتباعها.

ومن فلسطين اليهودية والمستعمرة الرومانية، دعا السيد المسيح للإله الواحد، فحاربته روما التي أخضعت شعوبًا وأممًا لا حصر لها، والتي لم تخض حربًا دينية واحدة، في حروبها الكثيرة، ولا اضطهدت جماعة ما لسبب ديني باستثناء المسيحية! والتي حوربت بلا هوادة إلى حين اعتراف روما بها في القرن الرابع ديانة رسمية للإمبراطورية.

قد يتساءل الكثيرون: لماذا لوحقت المسيحية؟ والسيد المسيح دخل القدس على أتان حاملاً غصن زيتون، داعيًا للسلام، في الوقت الذي غضَّ الرومان نظرهم عن كل الديانات، وقدَّم أباطرتهم

القرابين إلى آلهة سورية ومصر واليونان، بل وعُبِدت هذه الآلهة في روما نفسها.

وقفت روما هذا الموقف العدائي من المسيحية دون غيرها لسبب جوهري، لأنها جاءت لتبشر بديانةٍ جديدةٍ لم يعرفها العالم الروماني في تاريخه، ألا وهي الدعوة لإلهٍ واحدٍ، وحقيقةٍ واحدةٍ، وهذا ما يُهدِّد الحضارة الرومانية في الصميم لكونها قائمة على مفاهيم وقيم التعددية.

يعود الاعتراض مجددًا، وهو أن اليهودية بشَّرت أيضًا بإلهٍ واحدٍ! يبدو هذا صحيحًا في الظاهر، ولكن اليهودية بشَّرت وآمنت بإلهٍ محلّي بعينه وخاصٍ بها، هو (يهوه)، ولم تحاول اليهودية نشر هذا الدين المحلي بين الشعوب الأخرى ولا أرادت ذلك، ولذا بقي إله اليهود إلهًا من الآلهة التي تعُمّ عبادتها أرجاء الإمبراطورية الرومانية والعالم القديم برمَّته، كما كانت زمن إسكندر المقدوني وما قبله، والذي قدَّم القرابين، كأباطرة روما فيما بعد، لآلهة الشعوب والأمم التي ضمَّتها إمبراطورياتهم، بقيت المسيحية عقيدةً إيمانية بعيدةً عن السلطة إلى حين ارتباطها بها، فأخذت الكنيسة تزاول العنف على المذاهب المسيحية المنشقَّة عنها، وكذلك على غيرها من الديانات.

كان ذلك حال الإسلام – أيضًا – الذي بدأ إيمانيًا في مكة، وانتهى مرتبطًا بالسلطة ممارسًا العنف على غير المسلمين وعلى المذاهب الإسلامية المنشقَّة عن مذهب السلطة فيما بعد، فاختلط الديني بالسياسي إلى يومنا هذا، بل يتمُّ تأكيد هذا التوَّجه – اليوم – كلما سنحت الفرصة بمقولة الإسلام دين ودولة، وذلك على عكس غيرها من الديانات بما فيها المسيحية، والتي عادت إيمانية بعد عصر الأنوار في الغرب، وفصل الدين عن الدولة.

وهكذا نستطيع أن نرى أن العنف الديني، والديني السياسي، بدأ مع عقيدة التوحيد، كونها ترفض تعدُّدية العقائد، ولارتباطها الدائم وعلى مدى التاريخ بالسلطة السياسية وصراعاتها، حتى لكأن الديانات التوحيدية هي أحزابٌ سياسية أكثر منها عقائد إيمانية، فالإيمان الديني بحدّ ذاته والذي لم يوظَّف في السلطة والسياسة لم يكن سببًا للصراعات (العلوية الأناضولية مثلاً).

بدأ الرسول دعوته في مكة وما حولها لإلهٍ واحدٍ، والتي كانت إيجابية فيما يخصُّ العبيد والفقراء والمستضعفين، ربما للتأثير المسيحي لوجود جالية هامة منهم في مكة على رأسها الأسقف ورقة بن نوفل، ذو التأثير الكبير والمهم في حياة محمد الروحية، كما تذكر ذلك المصادر الإسلامية نفسها، وذلك على مدى ثلاثة عشر عامًا، حيث نزلت فيها السور القرآنية التي أطلقت عليها تسمية السور المكّية، وقد تعرَّض الرسول والمؤمنون بسبب

دعوته إلى ضغوط هائلة دفعته إلى تهجير قسم منهم إلى الحبشة المسيحية دفعًا للأذى، ونعتقد بأن السبب الرئيسي في ذلك هو محاولة محمد إلغاء التعبُّد لغير الإله الواحد، مما أخاف المجتمع المكّي المرتبط اقتصاديًا وتجاريًا بمواسم الحج، ولتحريضه العبيد والمستضعفين على أسيادهم ولترويجه الاستبداد بمحاولاته القضاء على التعددية الدينية وعلى كل فكر مخالف، وهذا ما دفع الرسول إلى الهجرة بجماعته إلى المدينة (يثرب)، والتي تقطنها إلى جانب قبيلتي الأوس والخزرج العربيتين جالية يهودية كبيرة وقوية، تسيّطر على اقتصاد المدينة وما حولها زراعيًا وصناعيًا، وكانت بين الفريقين منازعات دموية قد تكون دفعت عرب المدينة إلى قبول محمد كنبي لدين يضاهي اليهودية، والتي كان أتباعها يتباهون بما عندهم من كتب وشريعة وحكمة ومعرفة. وفي يثرب، بدأت تتشكّل ملامح سلطة أخذت فيما بعد شكل الدولة، وقد رافق ذلك انقلاب في شخصية الرسول وفي النص القرآني، مما يطلق عليه السور المدنية، فأخذت السور تتماهى مع التوراة (العهد القديم)، وأنشأ محمد مشروعًا مشابهًا لمشروع النبي موسى التوراتي لإنتاج سلطة تخضع لتشريع إلهي، وذلك لتشابه البيئتين البدويتين، وخلوهما من تشريعات مكتوبة، كالبيئة التي جاء منها السيد المسيح، حيث كانت لروما تشريعاتها المشهورة، والتي طورها وأصلحها فيما بعد الحمصي بابنيان من سوريا وتلميذه

لابنيان، في زمن العولمة الرومانية، لذا لم يكن السيد المسيح بحاجة لسلطة أو لتشريع، "ما لقيصر لقيصر، ومالله لله"، وهذا إعلان واضح بفصل الدين عن الدولة.

وبدأت السلطة في يثرب المدينة تُمارس عنفًا ضد الآخرين من غير المسلمين (١). وأفرز هذا الانقلاب فريقين: الأول يقوده الإمام علي، يشايعه رهط من الصحابة (سلمان الفارسي، أبو ذر، المقداد، قنبر، وغيرهم)، الذين عاشوا هذه الفترة نُسَّاكًا أو شبه نُسَّاك، والذين آمنوا بالمساواة الإنسانية نابذين التعصب والتفاخر، ووعوا بأن لا مستقبل لدعوة الرسول ومشروعه الكوني إن لم يتابع مسيرته في يثرب كما في مكة، أي الوقوف في وجه العصبيات والظلم الاجتماعي والغزوات القبلية، والبداوة المستهلِكَة لقدرات الناس والمقيِّدة للانطلاقة الثقافية الاقتصادية لجزيرة العرب. والفريق الآخر فريق الأرستقراطية القرشية بقيادة أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، الذين اعتقدوا أن هذا المشروع هو لقريش لإنشاء دولتها، بالوسائل التي كانت متَّبعة قبل دعوة محمد، أي الغزو للغزو، والنهب للنهب، والإثراء من غنائم الغزو والسلب، واستعباد الناس، وطغيان القوة. هؤلاء أسقطوا من الاعتبار تعارض الوسائل المتَّبعة لتحقيق ذلك مع أهداف مشروع الرسول ومقاصده الإنسانية العليا، وسنجد الإمام علي يقوم فيما بعد بإصلاحاته الجذّرية، ناسخًا بأقواله وأفعاله الشرائع والوسائل

والوسائط التي كانت متَّبعة قبله، مغنيًا وداعمًا المقاصد العليا لمشروع الرسول الكوني، معتبرًا التناقض الفكري والفعلي عند من سبقه من خلفاء مرحلة مظلمة انتهت، ونهج الإمام علي هذا نهجه الأئمة أولاده وأحفاده (هذا ما يعتقده الفكر الشيعي عمومًا)، ونراه مستمرًا إلى اليوم في الفكر العلوي الأناضولي. تمَّ للإمام علي بناء سلطة وكيان اجتماعي تعددي نقيض للبداوة، ومتماهٍ مع المدنية والحضارة، في فترة دولته القصيرة العمر، وبخروجه من جزيرة العرب إلى أحد أهم مراكز الحضارة الإنسانية (الهلال الخصيب).

نستنتج من خلال قراءتنا للتراث، وللتاريخ الإسلامي السني، والمرتبط بالسلطة (لا تعترف العلوية بهذا التراث أو التاريخ، ويعتبرونه مزوَّرًا من قِبَل السلطة فيما بعد، ولهم اجتهاداتهم الخاصة في قراءة هذا التاريخ، وسنوضحها لاحقًا)، أن توجُّه الآيات المكّية إلى المستضعفين والمعدمين والعبيد في مكة، والذين شكّلوا وقود الدعوة، ومادة النهضة الجديدة، قد تراجع في الآيات المدنية، بل وفي مواقف الرسول منهم (بحسب التراث السني)، بعد أن أحلَّ غنائم الغزو وسبي النساء واستعباد المهزومين، وبدأت تحالفات جديدة مع زعماء القبائل، بل وزعماء قريش، وسنجد النبي يهدي بنفسه أعدادًا من العبيد لآخرين، ويتقبَّل الهدايا عبيدًا أيضًا (في الوقت الذي كان الإمام علي يعمل عند يهود، ليشتري العبيد ويحررهم) وهكذا بدأت التناقضات بالبروز وبدأت التراجعات

والتنازلات لصالح مكة وقريش، بادئة بحكاية الغرانيق الواردة في مصادر الحديث والتفسير والسير، وأشير إليها في الآية "واللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى هن الغرانيق العلا إنَّ شفاعتهن لترتجى" (٢). فرضي أعداء محمد بمدح آلهتهم، وأصبحوا على استعداد للاعتراف به وبإلهه، وتمَّ فك الارتباط مع أهل الكتاب، والذين كان قد عدَّهم القرآن من أهل الإيمان والإسلام، وألغيت المعاهدات التي جعلتهم مع المسلمين أمةً واحدةً، وتمَّ الاعتراف بالكعبة كقبلة بعد أن كانت القدس (نلاحظ أيضًا أن الكنائس الأولى كانت تتَّجه إلى القدس كقبلة لها). وعادت القداسة للحجر الأسود ولشعائر الآلهة القديمة كالطواف، والسعي، وتكريس المقامات، والمواضع كالصفا والمروة وعرفات. ثم جاء العمل بسياسة المؤلَّفة قلوبهم، تحديدًا الأرستقراطية القرشية، والذين وافقوا على الدخول في الإسلام باسترضائهم بالهبات الضخمة. وتمَّ التراجع في الدعوة لعتق الرقيق، واستمر النظام العبودي وسبايا الحروب، وبدأت التناقضات بين لا إكراه في الدين، وبين "من يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه" (٣). هذه التناقضات وغيرها الكثير خلقت فجوات دائمة في تاريخ الإسلام، مما أعطى فرصة لمحترفي السياسة ورجال الدين لتبرير مواقف يجدون لها في أحد النقيضين عونًا دائمًا لهم لتنفيذ أغراضهم، وما كان هذا ليتمَّ لولا العودة لصلات الرحم والعشيرة، والتي حاربتها الآيات المكّية، ليصبَّ

الأمر كلّه في النهاية بيد قريش، والتي سيتمّ دعمها خلالِ حياة الرسول، حيث هدأ التنديد بالمترفين والتجار والأثرياء في السور المدنية، وأحلّت دولة الإسلام مصادرة الأرض والمال بالغزو واستحلال النساء والذراري.

لقد أضعف كل هذا الفريق الذي يقوده الإمام علي إمام المستضعفين أمام فريق أبو بكر وعمر وعثمان المدعومين من كل المتطاولين على السلطة من الأرستقراطية القرشية، والمستفيدين منها، والكارهين لعلي.

وسنجد صعوبة فيما بعد للأخذ بفكرة "إن دولة الراشدين (عدا الإمام علي) دولة قانون وعدالة وأخلاق"، فقد كانت هناك مرونة في الموقف الأخلاقي، وتقدّمت السياسة في الكثير من الأحيان على الأخلاق. ولاستحالة التوفيق الظاهري بين الآيات المكية والآيات المدنية، أي بين الدين والأخلاق من جهة، وبين السلطة السياسية من جهة أخرى، كان لا بد من التأويل (وصف الإمام علي القرآن "بحمّال أوجه")، يقول العلوية الأناضولية إنه قصد بذلك قرآن عثمان، والذي حرّق القرائين، وأبقى على نسخة واحدة هي المعروفة بالعثمانية، وكان ذلك السبب الرئيسي للثورة عليه وقتله. أعيد تشكيل قرآن عثمان وتنقيطه وصياغته زمن الحجاج وبني أمية). وأصبح هناك ما يعرف بالظاهر والباطن عند الشيعة على اختلاف مذاهبهم، وكذلك عند العلوية. وغدا القرآن للكثيرين

من المتأولة، ليس الإلهي الخير والحق والعدل فقط، بل الشر والباطل أيضًا، فهو رمز الوجود بخيره وشرّه النسبيين، فقد تكلّم الله والأنبياء من خلاله من جهة، وفرعون وإبليس من جهة أخرى. وعلى أساس فكر الناسخ والمنسوخ، الذي أصبح معمولاً به في الفقه الإسلامي لتبرير التناقض بين السور المدنية والسور المكية خاصة، أصبحت أحاديث وأقوال النبي والأئمة وأفعالهم تنسخ الكثير من آيات القرآن المتعلقة بالشريعة على وجه الخصوص، وبقي القرآن الإيماني الديني وليس التاريخي السياسي (التشريعي)، هو الخير المطلق، والحق المطلق، الذي أوحي به للرسول محمد وطبّقه الإمام علي بأقواله وأفعاله، كتابًا مفتوحًا تُسطّر فيه الحقيقة المستمرة ما استمر الكون (هذا ما تعتقده العلوية الأناضولية).

المراجع

(١) سيّد محمود القمني، حروب دولة الرسول، القاهرة: مدبولي الصغير، ١٩٠٠، ص ١٢٩ – ١٣٠.

(٢) المصدر ذاته، ص ٢٠٥ – ٢٠٦.

(٣) المصدر ذاته.

أسباب التشيع

يطرح الشيعة عامة، أسبابًا عديدة للتشيُّع للإمام علي وآل البيت، ورفضهم خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، ولكل خلافة لا تكون فيهم، وهم يعيدون بدايات التشيُّع إلى زمن الصراع على السلطة، وذلك بعد وفاة الرسول مباشرة، عندما احتدم الصراع بين قريش (عدا بني هاشم) من جهة، وبين الأنصار من جهة أخرى، حتى أن الفريقين، أهملا موت الرسول وما يترتَّب على ذلك، والذي دام من يوم وفاته، يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول إلى عصر الثلاثاء(١)، تاركين ذلك لبني هاشم(٢)، حيث دُفن الرسول بغياب أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ومحازبيهم، المنشغلين في سقيفة بني ساعدة في النزاع على السلطة، ثم في مراسم تسلُّم السلطة.

في ذلك الوقت، كان عامة المهاجرين وجلّ الأنصار لا يشكُّون بأن الإمام علي هو صاحب الأمر بعد الرسول، وقد ذهب الحسين بن علي إلى أبي بكر، وهو على منبر الرسول وقال له: "انزل عن مجلس أبي"، فرد أبو بكر: "صدقت والله إنه لمجلس أبيك"(٣).

بعد إقصاء الإمام علي عن الخلافة وتسمية أبي بكر لها، بدأت السلطة بالتضييق على آل البيت، حتى يبايعوا أبا بكر بالقوة، لتكسب السلطة الشرعية اللازمة، فانطلق عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد بجمع من مشايعي السلطة وحراسها، بأمر من أبي بكر الصديق، إلى بيت فاطمة الزهراء ابنة الرسول، وجُمع لبني هاشم الحطب لحرقهم إن أبوا البيعة فيما سلف (٤). فلما رأت فاطمة ما صنع عمر صرخت وولولت ونادت: "يا أبا بكر، ما أسرع ما أغرتم على أهل بيت رسول الله" (٥). وقال علي لعمر: "ما حرصك على إمارته (يعني أبو بكر) اليوم إلا ليؤثرك غداً"، ونازعت السلطة الزهراء بأملاكها، ولم يقبل أبو بكر شهادتها (٦). (أهدى عثمان بن عفان أملاك الزهراء فيما بعد لمروان بن الحكم).

لا تعترف العلوية الأناضولية بقصص مصادرة محمد لأموال اليهود وأملاكهم أو أموال غيرهم وأملاكهم، وهم يعتبرون ذلك تعدّيًا وتزويرًا لحقيقة أن محمد لم يلتفت إلى المال والملك مطلقًا، لأنه هو وآله عاشوا وماتوا فقراء بلا أموال وأملاك، وأنهم كانوا يعيشون بما تكسبه أيديهم.

هذه الأحداث، كانت الأساس في الاختلاف حول مسائل الإرث بين السنة والشيعة فيما بعد، فعند السنة يشارك الأقارب الذكور بنات المتوفي في اقتسام ورثته في حال عدم وجود أبناء ذكور له، وعند الشيعة ترث البنات وحدهن ولا يرث معهن أحد حتى لو لم

يكن لهن أخوة ذكور، وعند العلوية يتساوى في الإرث الذكور والإناث.

جاءت الزهراء إلى أبى بكر وعمر وقالت: "أنشدتكما الله، ألم تسمعا رسول الله يقول: فاطمة بضعة مني من أغضبها أغضبني" (٧). ثم قالت: "فإني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني، وما أرضيتماني" (٨). وعاشت الزهراء ستة أشهر على وفاة والدها، قضتها مخاصمة لأبي بكر وعمر بن الخطاب، ولم تكلّمهما حتى ماتت، ودفنها زوجها علي ليلاً، وصلّى عليها، ولم يؤذّن بها أبو بكر (٩).

صدّعت سقيفة بني ساعدة الجسم الإسلامي، بين المهاجرين والأنصار، وبين الأوس والخزرج، وبين قريش وبني هاشم، وانتهى ما تحقق على يد الرسول، إلى غنيمة يتصارع عليها المتصارعون، وبذلك فقد كرّست السقيفة الربط بين الإسلام الإيماني وبين السلطة السياسية (بمقولة الإسلام دين ودولة)، فأصبح الإسلام منذ ذلك الحين مطية لساسة ومغامرين.

صرف أبو بكر الأنظار عن أزمته الداخلية بردّه العنيف على الممتنعين عن أداء الزكاة للسلطة، وعلى بعض المرتدين خاصة، بعد أن رأوا ما آلت إليه دعوة محمد، مما يعكس انعدام الثقة بالسلطة الجديدة، وحظيت جرائم الحرب التي اقترفها خالد بن

الوليد ضد بني يربوع بشكل خاص بتأييد أبي بكر، وبأمر منه وهو الخليفة، أحرق كل من إياس بن الفجاءة وشجاع بن ورقاء، بل إن أبا بكر دافع عن خالد لقتله مالك بن نويرة، ونزوه بزوجته في ليلة قتله ذاتها (١٠). ومن الصعب علينا قبول كل هذا تحت شعار الإسلام الإيماني، الذي بدأه الرسول في شعاب مكة لرفع الظلم عن كل الناس في كل مكان، كما ذكر في كتب التراث الإسلامي.

وفي نهاية عهد أبي بكر، كان قد تمَّ القضاء على تجارة مكة وجزيرة العرب، كما تمَّ تدمير الزراعة بعد أن تملّك المهاجرون، وجلّهم من قريش، المزارع التي كان يملكها أو يشرف عليها يهود محترفون للزراعة، وإذا أخذنا بالاعتبار احتقار العربي للمهن بشكل عام، نستطيع القول بإن الدولة والسلطة التي رأسها أبو بكر، عاشت خلال خلافته من الزكاة التي كان يدفعها فقراء العرب من جهة، ومن غنائم الغزو للقبائل المرتدَّة أو الممتنعة عن تأدية الزكاة من جهة أخرى.

ولما دنا موت أبي بكر، دعا عثمان على انفراد، وأمره أن يكتب: "هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين؛ أما بعد..." فأغمي عليه، فكتب عثمان: "فإني أستخلف عليكم عمر بن الخطاب، ولم آلكم خيرًا". ثم أفاق أبو بكر، فقال لعثمان: "اقرأ عليَّ"، فقرأ عليه ما كتب، ووفق رواية عثمان، كبَّر أبو بكر

وأقرَّها (١١). وهكذا، جلس عمر وبيده جريدة يقول للناس: "اسمعوا وأطيعوا قول خليفة رسول الله" (١٢).

نُسف مبدأ الشورى بتوريث أبي بكر الخلافة لعمر، وقبول عمر بهذا المبدأ، ووُضع الأساس للخلافة الوراثية، لقد قبل عمر التوصية له بالخلافة، في الوقت الذي قال عن الرسول "أنه يهجر"، عندما طلب الرسول صحيفة وقلمًا ليكتب وصيته، معترضًا ومانعًا عنه ذلك (١٣).

وما أن تسلَّم عمر السلطة، حتى كانت المجاعة (عام الرمادة) تطلُّ برأسها على جزيرة العرب، فكان السبيل الوحيد أمام عمر لتمويل السلطة هو تعزيز الجيوش التي أرسلها أبو بكر في أواخر عهده لغزو الشام والعراق، وقد اتَّخذ عمر عددًا من الإجراءات، وفق سياسة الغاية تبرر الواسطة، فقد سمح للقبائل المرتدَّة بالمشاركة في الفتوحات والاستفادة من غنائم الغزو، كما تعهَّد للمسيحيين العرب "بأن لكم ما لنا وعليكم ما علينا"، فشاركوا في غزو العراق وفارس على هذا الأساس.

واختار عمر كوادره العسكرية والإدارية بعيدًا عن مبدأ المفاضلة بين معياري النزاهة والكفاءة، إذ انتهى به الأمر لإسقاط مبدأ النزاهة، لحساب الاستفادة من خبرات مجموعة بارزة من الكوادر الكفؤة، تحت شعار "تستعين بقوة المنافق، وإثمه عليه"، وتكشف

سيرة الكثير من أعوان عمر افتقارهم للنزاهة والوازع الأخلاقي، مثل معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة وأبي موسى الأشعري. كما أنه استعان بالأساورة، ضباط الجيش الساساني، في الأمور العسكرية والإدارية، وعاد ليعمل بتكتيك المؤلّفة قلوبهم، فخصَّص رشوة لأشراف العرب، ودهاقين الفرس، ضمانًا لتأييدهم، ومن الصعب أن نفهم هذا التعامل وفق المقاييس الأخلاقية التي نادى بها محمد (١٤).

- عامل عمر مسيحيي العرب، الذين حاربوا في العراق والشام ضمن كوادر جيشه، بقسوة بالغة بعد انتهاء الحرب، وما تزال بقايا هذه القسوة موجودة حتى الآن، من خلال العهدة العمرية التي تنسب له (١٥) الوثيقة التي انتقصت من كرامة السكان الأصليين وحقوقهم، والتي يعتبرها الكثير من السلفية والأصولية سُنَّة، كما أن عمر طرد المسيحيين العرب من بلادهم في جزيرة العرب، واستولى على ممتلكاتهم من أراض وبيع وكنائس، بحجة أنه لا يجب أن يكون هناك دينان في جزيرة العرب، وهكذا انتهت التعددية في هذا الجزء من العالم ليسيطر فيها الانحطاط بكل مظاهره إلى يومنا هذا.

وقد عامل الأسبان فيما بعد العرب واليهود بالأندلس بنفس منطق عمر، فكانت فعلة كل منهما ذات أبعاد اقتصادية وحقوقية سيئة، كرَّست تخلُّف جزيرة العرب منذ ذلك التاريخ إلى اليوم، مثلما

تخلّفت أسبانيا عن اللحاق بركب التقدُّم الأوروبي جراء فعلتها، وقد أمر عمر بإحراق مكتبة الإسكندرية (١٦)، ولم يكن مصير كتب الفرس بأفضل في عهده، من منطلق "إن كانت هذه الكتب توافق القرآن فلنا به غنىً عنها، وإن كانت تخالفه فلا حاجة لنا بها"، كما كان معاديًا للمرأة بشكل عام، وعرَّض بالنساء المتواجدات في بيت الرسول يوم وفاته، واللواتي احتججن عليه لمنعه الرسول من كتابة وصيته، عندما قال عمر عنه إنه يهجر، أو يهذو، ولقَّبهن بصويحبات يوسف (كزليخة امرأة العزيز، التي راودت يوسف عن نفسه) فنهره محمد قائلاً: "دعوهن إنهن خير منكم"، وكان هذا آخر موقف للرسول من المرأة، وإعلاء شأنها، بأن فضّلها على عمر والرجال عمومًا (١٧).

عندما دنا موت عمر بن الخطاب، رتَّب الأمر لتكون الخلافة لعثمان بن عفان (الذي كتب وصية أبا بكر باستخلاف عمر بن الخطاب منفردًا)، فقد حصر عمر اختيار خلفه في قريش، وفي زعماء الطبقة الأرستقراطية منها على وجه الخصوص وهم طلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص، وأضاف علي ممثلاً العامة من الناس، وعندما عرف علي بأسماء المرشحين للخلافة قال: "لقد ذهب الأمر منا" (١٨). واختير عثمان كما خطط لذلك عمر.

طعن فيروز الديلمي "أبو لؤلؤة"، وهو رجل فارسي كان عبدًا للمغيرة بن شعبة الثقفي، عمر بن الخطاب (ربما انتقامًا لهزيمة الفرس وانهيار إمبراطوريتهم). ويُذكر عنه قوله "أكل عمر كبدي"، فالغزوات الإسلامية، لم تخرج عن ناموس جمع الغنائم واسترقاق الأسرى، وسبي نساء المقاتلين وأطفالهم، وقد قيل إن أبا لؤلؤة كان إذا رأى سبايا قومه في المدينة يمسح على رؤوس أطفالهن ويبكي، وعندما وثب عبيد الله بن عمر بن الخطاب فقتل أبا لؤلؤة وابنته وابنه وامرأته وجفنّية والهرمزان (١٩)، قال أخوة عبد الله بن عمر: "غفر الله لحفصة، لقد شجعت عبيد الله على ذلك" (٢٠). وحفصة هي أخت الاثنين وزوجة الرسول.

فلما ولي عثمان، أخلى سبيل عبيد الله بن عمر، وبهذا بدأ عثمان خلافته، وأضاف بأن ردَّ الحكم بن العاص إلى المدينة وأعطاه مائة ألف درهم، والحكَم هذا هو الذي أمر الرسول بقتله ولو تمسّك بأستار الكعبة، وكان قد هرب بعد فتح مكة لما فعله بمحمد، وأقطع عثمان قريبه مروان بن الحكم قرية فدك (٢١) التي صادرها أبو بكر من فاطمة الزهراء فماتت غاضبة عليه، وأعطاه أيضا الخمس من غزو أرمينيا، والخمس من غزو أفريقيا الثاني، وأقطع الحارث بن الحكم موضعًا كان النبي قد تصدَّق به. وأهداه ثلاثمائة ألف درهم من بيت المال، وأعطى عبد الله بن خالد بن أسيد أربعمائة ألف درهم، وأعطى عبيد الله بن أبي سرح ابن خالته وأخاه

بالرضاعة خمس الغزو الأول لأفريقيا، وحرَّم كل المراعي حول المدينة وأوقفها لمواشي بني أمية، وطرد أبا ذر الغفاري إلى الربذة لأنه جهر بالاعتراض على تدابيره، وأمر بضرب عبد الله بن مسعود حتى كسرت أضلاعه (٢٢). وولى أقاربه من بني أمية المناصب والأمصار، وفي الطبري يقول علي عن عثمان: "اتَّخذ بطانة أهل غش ليس منهم أحد إلا تسبب بضائقة من الأرض يأكل خراجها ويستذّل أهلها" (٢٣).

وضع عثمان نسخة القرآن التي تسمى عثمانية العام ٦٥٠ ميلادي، وكان هناك من قبل مصحفٌ أبي بكر الذي تحفظه حفصة، ومن المؤكد أن أبا موسى وابن مسعود كان لكل منهما مصحفه، وكان لأبي بن أبي كعب مصحفٌ، وكذلك كان لعلي بن أبي طالب مصحف، وقد كلّف عثمان زيد بن ثابت بمهمة وضع نسخة مكتوبة، اعتمد فيها على مصحف أبي بكر، ولكنه أكملها بنصه الخاص وبالشهادات الشفوية، وأرسلت منها ست نسخ إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة، وبقيت نسخة في المدينة، وقد قصد منها توحيد النص وحفظه وتقديم نسخة رسمية ونهائية، وأمر عثمان بإلغاء النسخ الأخرى، ولكن هذا الأمر لاقى مقاومة لا سيما من جانب ابن مسعود ويجعل اليعقوبي في تاريخه (ج ٢ – ص ١٧٠) رفض ابن مسعود تسليم نسخته من القرآن للنار سببًا في جلده من قبل عثمان.

وقد أتهم عثمان بمحو الكتاب. ولم تفرض النسخة العثمانية نفسها إلا مع الأمويين، خصوصًا مع إصلاح الحجاج وعبد الملك بن مروان الذي تمَّ على القرآن وتنقيطه وتشكيله، واشتد النقد لعثمان في وسط الصحابة في المدينة وخارجها، والتهمة الأهم التي وجِّهت لعثمان هي تحريق مصاحف القرآن وقولهم له بإنك بدلت وغيرت (٢٤). قُتل عثمان، ولم يُغسَّل، ودُفن ليلاً، ووقف الناس يرمونه بالحجارة، ونهبت أمواله (٢٥).

وحتى نفهم شيئًا عن هذه العقلية التي حكم بها عثمان بن عفان واستمرَّت إلى أخر أيام خلافة بني عثمان الأتراك، فقد أرسل عمرو بن العاص إلى الخليفة عثمان يقول إنه لا يستطيع إرسال أموال أكثر من خراج مصر، والتي طلبها منه عثمان، لأن في هذا خراب مصر، فبعث له عثمان: "ليكن في خراب مصر إعمار المدينة" (٢٦). وهكذا نرى أن انحطاط الشعوب التي حكمتها الدولة الإسلامية أصبح مبرمجًا، ولا يزال هذا الانحطاط والثقافة التي استدعته منتهجة.

لن يكون الإسلام كما أراده الرسول سوى بخروجه من كل دهاليز السياسة، وعودته إيمانًا شخصيًا وخاصًا، وليس أمرًا عامًا وبضاعة تباع بالأسواق. فهذه عائشة راحت تحرِّض الناس بعد تولى الإمام علي الخلافة (٢٧)، وتلُم شمل الحزب المناهض لآل

البيت، والذي لم يكن مستعدًا للتخلي عن السلطة والثروة والامتيازات. وتلاقت مصالح كثيرة مع مصالح هذا الحزب، منها الشخصية، كعبيد الله بن عمر الذي هرب إلى معاوية عندما تولى الإمام علي الخلافة، خوفًا من أن يأخذه الإمام بجريرة ما قتل من الناس ظلمًا، وكطلحة والزبير، وكلاهما يطمع بالخلافة، ولكل منهما حزبه وأزلامه، يؤيدهم والي الشام معاوية دون أن يدفع بقواته، منتظرًا أن يُنهك الفريقان بعضهما بعضًا. قادتهم عائشة جميعًا إلى معركة الجمل، خارجة بذلك على الخليفة، وهو ما شجَّع الكثيرين على النكث بالبيعة والخروج على الخلفاء طيلة عهودهم، مثلما تسبب هذا الخروج، بفتنة عصفت بالدولة وقسمتها إلى مذاهب. وحرب الجمل كانت أم الحروب بحق وحقيق، فقد خرج معاوية على الخليفة في صفّين، مقتديًا بعائشة. ودفع معاوية الجزية للروم ليتفرَّغ لقتال علي. وتلت الجمل صفين، النهروان، كربلاء، ثم الحرَّة، حيث لم يخفِ الخليفة يزيد بن معاوية سعادته بنتيجتها، لأنه أخذ ثأر الأمويين في غزوة أحد، واستباح نساء المدينة (نساء الأنصار) لثلاثة أيام، ويقال إنه فُضَّت ألف بكر ونهبت المدينة (٢٨). ثم تلا الحرَّة تدمير الكعبة وإحراقها، وتكّرس خطاب التكفير والتكفير المضاد، منذ ذلك الحين، واستبيح دم المخالف على نطاق واسع. لقد أهدرت معركة الجمل الفرصة الأخيرة لرأب الصدع الذي أحدثته سقيفة بني ساعدة وبيعة أبي

بكر، والتي كانت فلتة كما قال عمر، وما جرَّته هذه السقيفة من صدوع وتداعيات.

فموقف عائشة ومن رافقها من الصحابة أصبح دينًا عند البعض. ولا تزال ممارسة العنف باسم الإسلام تستمد مشروعيتها من مواقف تاريخية لشخصيات حرب الجمل وغيرها من حروب الفتنة، والتي اشتعلت بين المذاهب، حيث أن الكُل يكّفر الكُل، وانقسم أهل السنة إلى مذاهب، تحاربوا ولا يزالون، كما نرى - اليوم - في مصر والجزائر وأفغانستان الخ.

فهذا أسد حيدر في كتابه (الإمام الصادق والمذاهب الأربعة) (٢٩)، يذكّر بتشاجر المذاهب السنية الأربعة وتطاحنها ويذكر بعض الأمثلة: وقعت الحوادث بين الحنفية والحنابلة، وبين الحنابلة والشوافع، يوم قام خطباء الحنفية يلعنون الحنابلة والشوافع على المنابر، والحنابلة يحرقون مسجدًا للشافعية بمرو، وتقع هناك فتنة هائلة، ذهب تحت هياجها خلق كثير. ويعظم الأمر والخلاف بين الحنفية والشافعية في نيسابور، وتقع فتنة، فتُحرق الأسواق والمدارس، ويكثر القتل في الشافعية، وينتصرون بعد ذلك على الحنفية، ويسرفون في أخذ الثأر وقع هذا العام ٥٥٤ هـ. ومثلها تقع الفتنة بين الشافعية والحنابلة سنة ٦١٦ هـ، ويكثر القتل وحرق المساكن في أصفهان، وتجتمع بقية المذاهب على الحنابلة غضبًا على أعمال ابن تيمية. ونودي في دمشق وغيرها: "من كان

على دين ابن تيمية حُلَّ ماله ودمه"، وكان ابن تيمية مفتي السلطان الناصر قد كفَّر المغول المسلمين، وأحلَّ مال طوائف ومذاهب وملل لا تحصى كما أحلَّ دماءها، وكان يفعل هذا كلما احتاج السلطان لمال، ومثال على ذلك: وجَّه السلطان الناصر بتحريض من مستشاره ومفتيه ابن تيمية، الذي كان يدعو إلى الجهاد ضد أولئك المارقين، عدة حملات ضد علويي كسروان، وانتهبهم وأبادهم في العام ١٣٠٧ م، واستولى على أملاكهم في موقعة عين صوفر.

ألم يُفتِ مفتي السلاطين بسبِّ الإمام علي من على منابر المساجد، وجعلوا من سبِّه سُنَّة لعشرات السنين، نعود لنُذكِّر بدور الكنيسة- السلطة في انحطاط الغرب في العصور الوسطى، وما تفعله اليهودية؛ السلطة المسيَّسة بسكان المنطقة القريبين منها والبعيدين، فيصف أحد مشايخ اليهودية العرب بالأفاعي، ويقول: "إن الله نَدِمَ على خلقهم، إلى جانب شعب الله المختار". ويقول المسلمون الأصوليون: "إن اليهود والنصارى أولاد القردة والخنازير". إن هدر الكرامات المتبادلة والكراهية تؤسس لفتن وحروب منطلقة من ثقافة عنصرية.

وبالأمس القريب، كفَّرت الحركة الوهابية وما تزال، ما عداها من أمَّة المسلمين وغير المسلمين، وهي خيرُ أمَّة أخرجت للناس، كما وصفها أحد شيوخ الوهابية، فأجمع المسلمون على اعتبار أنفسهم

خير أمة أخرجت للناس، وكفّروا الوهابيين باعتبارهم خوارج، وفتاوى تكّفر وتبيح الدم، والمال والسبي. دوامة من العنف، ومن سفك الدماء، ونهب الأرزاق، وهدم العمران لا تنتهي.

فاليوم لا يختلف عن الأمس، فتاوى من مصر والجزائر والسودان والسعودية وأفغانستان والباكستان، بل وحتى من لندن وباريس تفتي باسم إله فصّلوه على مقاسهم، يطلقون شرهم باسمه وعلى لسانه. إله متعطش للسلطة والامتيازات والفتنة بين الناس، ومن هنا فإن الكثير من كتب السير أو التاريخ أو التراث أخفت الحقيقة وشوهت التاريخ، حتى لا يُخدَش تقديس من يعتبرهم الكثيرون مثلاً أعلى، وهم في الحقيقة ظلال سوداء قاتمة. إن إظهار هذه الشخصيات كما هي فعلاً وليس كما يريد لها البعض أن تكون، من أبطال السقيفة، وحرب الجمل، وما تلاها من شخصيات على غرارها يساعد على فك إشكالات سوء الفهم والكراهية والعنف. إن تبرئة المداتين تاريخيًا لمجرد اتشاحهم بوشاح الإسلام تمنح الشرعية لممارسات سياسية وغير سياسية للمقتدين بهم. فعائشة، وهي مَن يطالب الكثير من رجال الدين النساء المسلمات كافة الاقتداء بها، خرجت على الخليفة (علي) الذي بُويع من جلّ المهاجرين والأنصار، لتحاربه لكراهيتها له لسببين: موقف علي من خلافة أبي بكر والدها، وموقف علي منها عندما اتهمها البعض بالزنا في حادثة الإفك الشهيرة. فقد نصح الإمام علي

الرسول الذي شاوره بالأمر: بأن النساء كثيرات، فردَّها الرسول على أهلها إلى حين، لأنه ليس من المعقول، أن تخرج عائشة لحرب الخليفة الإمام علي لتأخذ بثأر عثمان، الذي كانت تحرّض على قتله كأشد ما يكون التحريض، وتقول: "اقتلوا نعثلاً، قتل الله نعثلاً" (نعثل، رجل يهودي عظيم اللحية كعثمان)، فقال عثمان في عائشة وفي آل أبي قحافة ما قال، وغضب حتى ما كان يدري ما يقول (٣٠)، ولا نعتقد بأنها بدلت رأيها بعد مقتله، فعندما أخبرها ابن أم كلاب بمقتل عثمان، قالت: "بعدًا وسحقًا" (٣١). كان أخوها هو محمد بن أبي بكر، والذي أصبحت تتمنى موته ولقبته مذممًا (كان بعض أعداء الرسول يلقبونه بذلك وتذكر بعض المصادر الإسلامية أن اسمه لم يكن محمدًا بل كان اسمه قثم)، وكانت تقول: "قتل الله مذممًا بسعيه على عثمان" (٣٢). وبعد أن قُتل محمد بن أبي بكر (قتله معاوية وحرقه في جيفة حمار)، أرسلت لها أم حبيبة زوجة الرسول وأخت معاوية كبشًا مشويًا لتغيظها، فما كان من عائشة إلا أن قالت: "قاتل الله ابنة العاهرة! والله لا أكلت شواءً أبدًا". عاملها الإمام علي بالمعروف بعد معركة الجمل، على الرغم مما فعلته من فتنة أودت بحياة الآلاف من الناس، إلا أن كراهيتها لآل البيت لم تفتر، فقد منعت فيما بعد دفن الحسن بن علي إلى جانب جده محمد. (كانت تركب بغلة وتحرّض الناس).

كانت المطالبة بالقصاص من قتلة عثمان ستارًا يخفي محاربو الجمل تحته أغراضهم الشخصية، أو أطماعهم في الحكم والسلطان وانتزاع الخلافة من الإمام علي، رغم أن زعماء الجمل هم الذين تقدموا الناس في الثورة على عثمان.

وتروي المصادر التاريخية أن أكثر المؤلبين على عثمان كانا طلحة والزبير (نهبا بيت المال في البصرة وقتلا خمسين من حراسه). إن الذين حاربوا الإمام كانوا من المتضررين والخائفين على امتيازاتهم ومصالحهم، أولئك الذين كانوا قد تقاسموا الثروة والسلطة وولاية الأمصار، خصوصًا أن الإمام علي عاد إلى تشريع المساواة بين الناس. فحين سأل الإمام علي طلحة والزبير: "ما الذي كرهتما من أمري"، قالا بصراحة: "خلافك عمر في القسمة" (٣٣). فقال علي: وجدت رسول الله يحكم بذلك. وبما أن قسمة الإمام علي لم تعجب طلحة والزبير، فقد خرجا يحاربانه، رغم أنهما لم يكونا محتاجين. ولنحص ثروات الستة الذين حصر عمر الخلافة فيهم، حسب ابن سعد في الطبقات الكبرى: كان لعثمان عند خازنه يوم قتل ثلاثون ألف ألف (٣٠ مليون) وخمسمائة ألف درهم (نقد فارسي) وخمسون ومائة ألف دينار (نقد بيزنطي) فانتهبت وذهبت. وقد يتساءل البعض بحسن نية، ولكن من نهبها! هل يعقل أن يكون بعضهم من الصحابة وأولادهم. كانت قيمة ما ترك الزبير ٥٠ ألف ألف ومائتي ألف درهم، وخُطط في مصر

والإسكندرية والكوفة، وبالبصرة دور (٣٤). ولنختصر لنقول إن طلحة لم يكن يقِل عنهما غنىً، وعبد الرحمن بن عوف أيضًا، وكذلك سعد بن أبي وقّاص كانت تقاس ثروته بمئات الآلاف. بينما كل ما ترك الإمام علي لأهله لم يزد عن ٧٠٠ درهم هي كل ما جمعه في حياة أمضى منها ما يقرب من خمسة أعوام في الخلافة. لقد كان الإمام علي الخليفة الحق في الزمان الخطأ، وإلا لما تساءل مستنكرًا: "أأعصى ويطاع معاوية!". لقد سار الإمام علي على خطى الرسول، فكان على دين لم يرش ولم يرتش، ولم يُقطع البلدان والأمصار، ولم ينهب ويسلب ويهب محازبيه، وكان معاوية على دنيا (ولم يكن على دين)، وسار على خطى عثمان، فأعطى من بيت المال هبات ورشاوى ووسع على محازبيه. ويسير الحسين على خطى أبيه علي فتكون كربلاء، ويسير يزيد على خطى أبيه معاوية فيطاع.

تختلف المذاهب الإسلامية حول صحة التاريخ الإسلامي وحول رموزه فهناك من يصف هذا التاريخ بالمشرف والعظيم مسوقين رموزًا رجال ونساء كطلحة والزبير وعائشة وأبطال السقيفة، وفي الوقت الذي ترفض فيه الشيعة عامة والعلوية خاصة هذا الطرح ويسوقون رموزًا تشرف هذا التاريخ مثل الحلاج وابن عربي وجلال الدين الرومي وابن رشد وابن سينا وغيرهم الكثير. وليس بمجلٍ أو عظيم أو مشرّف برجال مثل عبد الله بن عباس، الذي

سوّقه لنا مزيفو الحقيقة والتاريخ كمثال أعلى على الزهد والورع والعلم، بوصفه حبر الأمة وبحرها، وأكثر من حدَّث عن الرسول، وابن عم محمد والإمام علي، وواليه على البصرة أعظم الأمصار وأجلّها خطرًا، من وثق به وأمِن إليه. ولكن ها هي ذي رسالة أبي الأسود الدؤلي تأتي الخليفة بأن ابن عمه وواليه على البصرة عبد الله بن عباس هذا قد خانه وأكل ما تحت يده من مال بغير علمه. فيرسل الإمام علي الرسالة التالية لابن عباس: "أما بعد، فقد بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك، وأضريت أمانتك، وعصيت إمامك" (٣٥). وانتظر الإمام لعله يتلقى ما يثلج صدره من أنباء تُكذّب ما قيل عن عبد الله ابن عباس، أما أن يخونه ابن عباس فذلك غير متوقع وفوق طاقة البشر. ويأتي الرد من "الفقيه الزاهد" ابن عباس: "أما بعد، فإن الذي بلغك باطل، وأنا لما تحت يدي أضبط وأحفظ، فلا تصدق عليَّ الأظناء رحمك الله والسلام". لقد كذب ابن عباس فوق خيانته، ولكن الإمام طلب منه تقريرًا ماليًا، فما كان بابن عباس إلا أن جمع ما تبقى في بيت المال، وقدره ستة ملايين درهم، وهرب إلى البيت الحرام في مكة، واستأمن به، وأوسع على نفسه فاشترى ثلاث جواري بثلاثة آلاف دينار، ولكن الإمام وصفه برسالة بأنه يأكل حرامًا ويشرب حرامًا، وينكح بأموال اليتامى والأرامل، وحاول الإمام استعادة المسروقات من ابن عباس بوسائل عدة، ولكن ابن عباس أجاب الإمام علي:

"لئن لم تدعني من أساطيرك لأحملن هذا المال إلى معاوية يقاتلك به" (٣٦).

صراع دموي سافر على السلطان أفرز طائفتين مذهبين (ومنهما خرجت عشرات المذاهب والطوائف) سنة وشيعة هما إلى الحزبين السياسيين أقرب ولكنهما في النهاية يتشابهان في أنماط التفكير لحملهما أيديولوجيا واحدة، ويختلف قديسيهم، فهذه الفئة تقدس هذه الطائفة من أشخاص التاريخ الإسلامي والأخرى تلك ولكنهم لا يختلفون في اتجاهات عقولهم المسيطر عليها الماضوي التاريخي بكل زخم الرفض والكراهية للحزب الآخر.

المراجع

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، لبنان، دار الكتب العلمية، لبنان ٢٠٠٥، صفحة ٢٥٨/٤، شرح النهج للمعتزلي ١٣٢/١

(٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، الرياض النضرة في مناقب العشرة، لبنان، ١٩٩٦، صفحة ١٦٤/١

(٣) أحمد بن حجر الهيثمي المكي، الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٩، صفحة ١٧٥، شرح النهج ١٧/٢

(٤) أبو جعفر بن جرير الطبري، تاريخ الطبري، مؤسسة عز الدين، لبنان، ١٩٩٩، صفحة ٢٠٢/٣

(٥) ابن أبي الحديد المعتزلي، شرح النهج، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٨، صفحة ١٩/٢

(٦) الدين محمد بن عمر الرازي، تفسير الفخر، دار الفكر، سورية، ٢٠٠٢، صفحة ٢٨٤/٢٩

(٧) يوم انحدر الجمل من السقيفة، نبيل فياض ص ٥٥

(٨) ابن قتيبة الدينوري، الإمامة والسياسة، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٧، صفحة ١٤/١

(٩) أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار الجيل، ٢٠٠٥، صفحة ١٧٧/٥

(١٠) يوم انحدر الجمل من السقيفة، نبيل فياض، ص ٧٠

(١١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تاريخ الطبري الرسل والملوك، دار الفكر، سوؤية، ١٩٩٨، ط. أوروبا ٢١٣٨/١

(١٢) المرجع السابق

(١٣) الإمام الغزالي، سر العالمين وكشف ما في الدارين، ص ٢١، مطابع النعمان ط/٤، نسخة الظاهرية

(١٤) سيد محمود القمني، دولة الرسول، ص ٣٢

(١٥) ابن قيم الجوزية، أحكام أهل الذمة، ص ١١٥/٢ ١١٤١

(١٦) عبد اللطيف البغدادي، الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث. المعاينة بأرض مصر، تحقيق أحمد سبانو، دار قتيبة ص ٥٢. إخبار العلماء بأخبار الحكماء، جمال الدين القوطي.

(١٧) محمد سعد، الطبقات الكبرى (ابن سعد)، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٨، ص ٢٤٣/٢ – ٢٤٤

(١٨) يوم انحدر الجمل من السقيفة، نبيل فياض، ص ٧٨

(١٩) تاريخ اليعقوبي ١٦٣/٢

(٢٠) تاريخ اليعقوبي ١٦١/٢. طبقات ابن سعد ٣٥٧/٣

(٢١) المعارف ١٩٥

(٢٢) تاريخ اليعقوبي ١٤٧١٤٨/٢

(٢٣) الطبري ج ١، ص ١٥٢

(٢٤) اللاذري، أنساب الأشراف، المعهد الألماني، لبنان، ١٩٩٧، (ج ٥، ص ٥٩)

(٢٥) عائشة والسياسة، ص ٥٢

(٢٦) موسوعة الأقباط

(٢٧) الطبري ٤/٤٧٧، تاج العروس ١٤١/٨

(٢٨) الطبري ٥/٤٩٥

(٢٩) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، جزء ١٧٧١٩٠/٨، النجف سنة ١٣٧٥ه

(٣٠) عائشة والسياسة ٥٥/٥٦/٤٠. البدء والتاريخ ٢٠٥/٥

(٣١) اليعقوبي ١٨٠/٢

(٣٢) أنساب الأشراف ١٠٢/٥. العقد الفريد ٩٨/٣

(٣٣) شرح النهج ٤١٤٢/٧. فتوح ابن الأعثم ٢٤٨/٢

(٣٤) مروج الذهب ٣٤٢/٢

(٣٥) محمد عبده، نهج البلاغة طبعة مؤسسة الأعلمي ص ٤١٢

(٣٦) طه حسين، الفتنة الكبرى، القاهرة ١٩٦٧

الإمام علي

الإمام علي فيلسوف الأخلاق وممثل العدالة الكونية (الإلهية)، القائمة بذاتها على معنى الإنسان ومعنى الطبيعة (الكون).

وإذا كان فلاسفة الإغريق واليونان (سقراط، أرسطو، زينون) غربًا، وفلاسفة إيران والهند والصين (زرادشت، بوذا، لاوتسي) شرقًا، قد صاغوا التشريعات وقواعد الأخلاق والفكر والفلسفة، فالإمام علي جمعها شرقًا وغربًا وجسَّدها وزاولها عمليًا، وأخرجها من الكمون والإشارة والمعنى إلى الفعل والتطبيق والممارسة، فكانت النتائج حبًا وخيرًا وجمالاً؛ حبًا للإنسان وكرامته، وخيرًا يطال الطبيعة في التفاعل معها، وجمالاً أضفته عدالته المطلقة الفاعلة، في وجه بشاعة الظلم والشر. فالكمال الإنساني بلغ به مداه حيث لا مدى بعده، فكبح جماح القوى الطاغية، المدمرة لحياة الإنسان، والمخرِّبة للعمران، في اندفاعها وراء الغزو والقتل والسبي والنهب، وأعاد للأرض الدعة والأمن اللازمين للعمران، فعادى المجرمين الغزاة المحتكرين الجشعين ممجدي السلطة والسلطان، وكشف الأقنعة عن وجوههم البشعة، وصنع من تلاميذه المؤمنين برسالته قادة فكر وسياسة وجنود حق وعدالة.

تميَّز الإمام علي في كل مجال، ولكن أسطع ما يميِّزه هو مقاومته اللا محدودة للظلم والظالم، ونصرته للمغبون المظلوم، وردعه الاستبداد بكل أشكاله، وضمانته لحرية الإنسان وكرامته راهنًا بذلك حياته.

الإمام علي، هو الأمل الإنساني في تاريخ غمَرَتهُ قبلهُ ظلمة ظالمة، سوى بعض برق ولمع في أرجائه، فأشرق على الكون كشمس بعد ليل طويل، وكقمر أضاء عتمة ليل مخيف، وكم عانى من سار على هداه وحمل مشعله، كالأئمة أولاده، وأحفاده بعده، وتلاميذه، وأنصاره المبثوثين في العالم، كالخميرة في الخبز، وكالملح في الطعام، حتى اليوم.

ما يميز الإمام علي عن غيره من عباقرة الكون، هو أن بذره الذي بذَرَهُ في العقول يخضرُّ ويحمل ثمرًا. يجعل الإمام علي الإنسان وكرامته هدفه الأعلى، وكما قال السيد المسيح لكاهن يهودي جادله لخرق السيد المسيح حرمة السبت: "يا مرائي ألإنسان من أجل السبت كان، أم كان السبت من أجل الإنسان".

وعند الإمام أن كل دين وشريعة وقانون وفكر وفن وأخلاق هي من أجل الإنسان، فهي تخدم تطوره المستمر، وهو بدوره يطورها فهي ليست أصنامًا ليمجِّدها، بل فعل حيوي مستمر على طريق الإنسانية السائرة نحو أهدافها العليا للتقرب من الله.

لقد حاولت السلطة على مدى تاريخها، منذ أول يوم لإقصاء الإمام، بل وقبل ذلك وإلى اليوم، تشويه صورته، وقدَّمته للعامة وكأنه واحد منهم، فتقوّلت عن لسانه أقوالاً لا تخرج عن منهج السلطة. بل وشُتم الإمام علي وآله لعشرات السنين من على منابر المساجد، في أرجاء العالم الإسلامي، فنجد الإمام علي يُقارن بالراشدين، بل وبمعاوية، لترجح كفة معاوية عند الكثيرين، وكفة يزيد ترجح على كفة الحسين في ميزانهم.

ولكن كل التشويه المتعمد، وكل الضوضاء، ما استطاعت أن تمنع أصوات الإمام علي وآل بيته وأفعالهم من أن تصل آذانًا صاغية، فنجد الملايين حتى اليوم لا يفرقون بين كلمة حق وعدل وخير وبين اسم علي، فهي مترادفات منذ قال قولاً وطبقه فعلاً، وكلما اشتد بنا الظلم والغبن، وغيَّمت الدنيا على آمالنا، تجدنا نتطلع إلى الإمام، تستنجد نصرته للمحروم والمظلوم من حارمه وظالمه.

ولا اعتقد أن هناك مؤرخًا أو مفكرًا يستطيع أي منهما الإحاطة بفكر الإمام وفلسفته وأعماله العملاقة، فهو من العدل والفلسفة والتشريع والأخلاق كمركز الدائرة، لا تهمه النتيجة بل الموقف الإنساني الفريد، فلا النصر أو الهزيمة ولا الإخفاق أو النجاح هي همومه. فالنصر كان دائمًا حليفه لتجسيده الحقيقة المطلقة التي تحمل قيمتها لذاتها.

كان الإمام وسيظل نصيرًا للمستضعفين والمظلومين، قاسيًا على الظَلَمَة، صافي النوايا محبًا وفيًا للناس جميعًا وعلى كل فضيلة من فضائله نستطيع أن نسوق ليس مثالاً بل أمثلة عديدة، وكانت تدين له بلاد شاسعة، وملايين البشر، فكنا نجده يطحن لنفسه، ويكسر خبزه على ركبته، ويخصف نعله بيديه، ويقول لناقديه: "أأقنع أن يُقال لي أمير المؤمنين ولا أشارك الناس مكاره الدهر".

لقد كان الإمام دائمًا على حق، وعدوه دائمًا على باطل، لأن العدالة كانت نهجه ما حاد عنها أبدًا، وليس ليتوصل بهذا إلى قلوب الناس، بل هي جزء من أخلاقه المتماسكة المتأصلة، وهي طبع وليس تطبعًا، فكان نصر أعدائه عليه هزيمة لهم، كما كانت هزيمته انتصارًا له ولقيم الإنسان والكون، والمثل في ذلك معركة صفّين، فهو يوصي جيشه لا يقاتل حتى يبدأ الأعداء القتال، أي دفاعًا عن النفس، ويصيح بهم: "لا تقتلوا هاربًا مدبرًا، ولا تصيبوا معورًا، ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذى". ثم يجلونه عن الماء، ويبلّغونه أنهم يمنعونه عنه حتى يموت عطشًا، فيزيحهم عن الماء ويدعوهم في عطشهم إلى هذا الماء الجاري أسوة بنفسه وصحبه وبالطير الشارب ولا زاجر له.

وعندما غدر به قاتله، قال بشأنه: "لإن تعف أقرب إلى التقوى"، وهو من قال: "لا حسب كالتواضع"، وكانوا يشتمونه فيردُّ عليهم: "أكره لكم أن تكونوا سبَّابين". وأغروه بملك النعيم والسلطان،

فنظر إليهم وقال: "كفا بحسن الخلق نعيمًا". وبشّروه بالنصر إن هو تداهى كمعاوية، فقال: "الغالب بالشر مغلوب". وتغاضى عن سيئات أعدائه قائلاً: "أشرف أعمال الكريم غفلته عما يعلم من سيئات الناس"، ويوصي أحد ولاته على الأمصار: "أعلم أن الناس سواء، إما أخًا لك في الإيمان أم نظيرك في الخلق".

وكان ذا نطق ومنطق، وبيان وبلاغة، حتى قال أحدهم فيه: "إن كلامه دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوق". كان عالمًا مع العلماء، فقيرًا مع الفقراء، شديدًا على الظالمين، زاهدًا مع الزهاد، أديبًا مع الأدباء، بطلاً فذًا بين الأبطال، خصم الباطل، وفارس الحق، يهون نصره لديه، فيبكي أعداءه المستهدفين حياته، إنه ضمير الإنسانية الحي، قال له الرسول: "يا علي إن فيك لشبهًا من عيسى ابن مريم"، وقال عنه عمر بن الخطاب: "كنا ننظر إلى علي كما ننظر إلى النجم".

هكذا وصفه محبيه ومشايعيه وقدسوا أقواله وقالوا عن لسانه ربما ما لم يقل، وربما نسبوا أفعالاً على فعله وقدسوها، وهكذا أصبح الإمام علي قائدًا للكثير من الحركات السياسية أو الدينية المعارضة للسلطة والخارجة على بطشها وجبروتها ونهجها.

إن قومًا عبدوا الله رغبة (في النعيم) فتلك عبادة التجار، وإن قومًا عبدوا الله رهبة (من الجحيم) فتلك عبادة العبيد، وإن قومًا عبدوا الله شكرًا فتلك عبادة الأحرار. **(الإمام علي)**

فالإيمان عند الإمام ليس ترغيبًا وترهيبًا، فهذه عبادة سلبية، بل هي الحرية في الإيمان، المرتكزة على العقل والحكمة، وهذا أمر ينسحب على كل قضايا المجتمع، ففعل الخير يجب أن يكون لذاته لأنه خير وليس انتظارًا لمنة، والعدل يقاس بهذا المقياس فهو يجب أن يوجَّه للصديق والعدو.

كان الكرم إحدى سجاياه مع أصحاب الحاجات والفقراء والمعدمين، حتى أن أحدًا من الناس لم يمت أثناء إمارته وعنده أقل مما عند الإمام الخليفة، وهذه هي الصوفية العليا والفروسية الأبية والأخلاق السامية. علي أمير المؤمنين لم يأنف أن يعمل يومًا عندما عضَّه الجوع وعائلته، يؤجر نفسه ليلته يسقي نخلاً لقوم من يهود المدينة حتى مُجلت يداه، حتى أصبح واستلم شيئًا فيسارع لشراء

الأرقّاء بهذا المال ويحررهم في الحال، وهو الذي قال: "لا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرًا"، وأما الذنب الذي لا يغتفر عند الإمام فظلم العباد بعضهم لبعض، يقول العلوية الأناضولية: "أكل الإمام علي طيلة حياته من تعب يديه، ولم يتوقف عن العمل يومًا واحدًا".

أبى أن يسكن القصر الأبيض الذي أُعِدّ للخلافة في الكوفة، لئلا يكون سكنه أعلى من سكن فقرائها، كان أسخى الناس قاطبة، ولكنه يقول: "أفضل الزهد إخفاء الزهد". ومن مروءته أنه اعتلى عمرو بن العاص بذي الفقار فوجد من عمرو استسلامًا فعفا عنه وتَرَكَهُ، وعمرو هو الداهية الماكر مستشار معاوية، ولكن مروءة الإمام أبت عليه قتله، وعندما نصحه معاونوه أن يحارب معاوية بسلاحه، المكر والخديعة، قال: "ما معاوية بأدهى مني ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر والفجور لكنت أدهى الناس".

أوليس هو القائل: "آثر الصدق ولو ضرك على الكذب حيث ينفعك". وكان يسعى لتسوية الأمور مع خصومه، ومع من يبادره العداوة لحقن الدم، ولا يقاتل حين يقاتل إلا دفاعًا عن النفس، كان فقيهًا عالمًا ومفتيًا حتى قال الرسول عنه: "أفتاكم علي". وإذا انصرف الناس إلى ظاهر الدين رأى فيه الإمام مقاصد عليا، ويرى فيه اليوم الكثيرون إمام الأولين والآخرين.

كان الإمام أبًا لعلم الكلام وأصل التصوف الإسلامي، وجذوره نجدها في ممارساته وأقواله، كان ركنًا في العلوم، له خُطب من أجمل ما قرأت في وصف الحيوان، ففي خطبة له يذكر الطاووس وفي الثانية الخفاش، وروي أن تلميذه وصاحبه أبا الأسود الدؤولي شكى إليه يومًا شيوع اللحن على ألسنة العرب، فأطرق هنيهة ثم قال: "أكتب ما أملي عليك"، فتناول أبو الأسود قلمًا وصحيفة، فقال الإمام: "إن كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا بفعل، وإن الأشياء ثلاثة: ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر (يعني اسم الإشارة)"، ثم قال: "انح هذا النحو يا أبا الأسود"، فعرف هذا العلم بعلم النحو منذ ذلك اليوم. ربما كان كل هذا من صفات الإمام وربما أضفى العلوية عليها ما يريدون، المهم أن هذه الطائفة جعلت هذه الأخلاق نبراسًا تحاول التمثل بها والوصول إليها.

هنا أودُّ أن أدلي بملاحظتين:

الملاحظة الأولى: لم يُكتب التاريخ العربي والإسلامي على أسس حديثة مبنية على ما توصل إليه العلم (أصل كلمة تاريخ العربية: يرخ في لهجة آرام الشرقية ومنها أرخ تأريخًا). ابتداء من كلمة تاريخ ذات الأصل الآرامي والمشتقة من اسم القمر، يرح. فهذا التاريخ مزيف ومزور ومبني على الأساطير، وكون العرب

والمسلمين في بداياتهم أميين فقد كُتب تاريخهم فيما بعد اعتمادًا على حكايات شفهية، وقصص شعبية ألصقت بهذا التاريخ (بعد أكثر من قرنين). إن المعيق أمام إعادة كتابة هذا التاريخ اعتباره لدى البعض تاريخًا مقدسًا كونه يتكلم عن الإسلام، ولذا أصبح هذا التاريخ بكل تراثه من نص ديني وحديث وسيرة وغيرها خطوطًا حمراء، ويشكل هذا الأمر إحدى عوائق الأخذ بأسباب الحضارة والركون إلى الانحطاط، وما دعاني لهذه الملاحظة هو اسم أبو الأسود الدؤولي، فالباحث فاضل مباركة[1] يعتقد بأن هذا لقب وليس اسمًا لأنه وبكل بساطة يعني في الآرامية أبا الكلام المنمق أو الجميل (أبا دسودا دوولي). وليس ما ذكره طه حسين في الشعر الجاهلي ببعيد عن الحقيقة، ولذا فالكثير من شخصيات التاريخ العربي الإسلامي طالها التزوير والتحريف، إما بالتقديس واختراع القصص والأساطير حولها، وإما بالتهويل والانتقاص منها، وإما باختراعها اختراعًا، خاصة وأن الكثير من الفرق الإسلامية تطعن بتاريخ الفرق الأخرى ولها رواياتها المخالفة.

والملاحظة الثانية: يجب أن ننظر إلى شخصيات هذا الكتاب بمنظار عصرها وألا نُحاكمها حسب قيم عصرنا وأخلاقه التي تطورت وسمت مثلها مثل باقي العلوم والمعارف الإنسانية.

---

[1] - بقايا الآرامية في لغة أهل صدد المحكية.

المكرَّمون

وقف مع الإمام علي في صراعه المرير مع السلطة الصحابيُّ شيخ الصوفية سلمان الفارسي (باب الإمام علي عند العلوية النصيرية)، وخمسةٌ من تلاميذه المكرَّمين، وهم أبو ذر الغفاري، وعثمان بن مضعون النجاشي، والمقداد ابن الأسود الدوئلي، وقنبر ابن كادان الدوسي، وعمَّار بن ياسر، وتبعهم على ذلك الكثير، فشكَّل هؤلاء النواة الصلبة الرافضة لأي خلافة أو إمامة سوى في الإمام علي وآل البيت.

بيَّنت سنوات خلافة كل من أبي بكر وعمر وعثمان استحالة العدل الديني المرتبط بالسلطة، ابتداءً من اختيار الخَلَف، والذي لم يراع فيه مبدأ الشورى سوى في الإمام علي، الذي اختارته العامة والجماهير وأرغمته على ذلك، وفي خلافته القصيرة؛ نجح الإمام علي في فصل الإيمان الديني الخالص عن السلطة السياسية بأقواله وممارساته، فالقرآن كان يوفر فرصًا للهروب من العدالة ومن الأخلاق كونه حمَّال أوجه، وكذلك الافتقار لقوانين تحدُّ من سلطة الخليفة.

وقد أوجد الإمام علي صندوق المظالم، حيث كانت تُرمى فيه شكايات المتظلمين، وطبَّق مبدأ قانونيًا وهو عدم المعاقبة قبل حصول الجريمة، ولم يكبح جماح المعارضة والكتل السياسية المتضررة من عدله واستقامته، والذين منعهم من التعدِّي وأكل أموال الناس أو الدولة، وترَكَ لمعارضيه حرية العمل إلى الوقت الذي يصلون فيه إلى فعل مادي، وقد تمسَّك الإمام بهذا القانون على حساب المصالح السياسية، وهذا الموقف الأخلاقي طبع حياته، ولا أدَلَّ على ذلك من سماحه لجيش معاوية بالتزود من المياه بعد إزاحته عن موارده، ومن أبسط قواعد الحرب أن تقطع سبل التموين عن العدو لإرغامه على الاستسلام، ولكن الإمام علي لم يستطع تصور حتى أعدائه يموتون عطشًا، فسمح لهم بالتزود بالمياه، في الوقت الذي منعه معاوية من الماء عندما استطاع، مثلما منع جيشُ يزيد الحسينَ من الماء.

لقد أراد الإمام وسلمان وأبو ذر منع المسلمين من النهب في دولة قامت سياستها قبل وصول الإمام إلى الخلافة على التوسع بالغزو، وقام اقتصادها على غنائم الغزو والسلب والنهب واستعباد الناس، وأراد أن يحدَّ من الاستحواذ على الثروات في نطاق شريعة تبيح التملك غير المحدود، وسلك سلوك الراهب وهو في مكانة أقوى ملوك الأرض وأباطرتها، وأراد من الحكَّام أن يسلكوا مسلكه، فقيَّد الشريعة والدولة، فاتَّجهت القوى السياسية لمعاوية، وأراد الإمام

للدين أن يتراجع إلى المرتبة الثانية بعد العدل، وهذا ابن طاووس الحسني يقول: "الحاكم الكافر العادل أفضل من المسلم الجائر"، وفي سورة هود تفسير ينص على أن الله لا يعذّب على الكفر وإنما على الظلم.

لم يحمل الإمام علي على جريح، ولا تبع فارًا، ولا استعبد أسيرًا، ولا سبى امرأة ولا نهب مالاً أو أرضًا، وقُتل، ولم يورث أهله شيئًا، ولم يترك أرضًا أو عقارًا، ولا ذهبًا أو فضة، ولكنه ترك أقوالاً حارب بها الباطل قانونًا كان أو دينًا أو شريعة، كما ترك أفعالاً أمثلة سار على خطاها العلوية الأناضولية ولا يزالون يسيرون عليها إلى اليوم.

قد يُخالف ما يعتقده العلوية بالإمام علي ما جاء في التاريخ الإسلامي (السني) ولكن هذا الخلاف يصب في صالح العلوية الذين جعلوا هذه الفضائل بمثابة تشريعًا لهم مقابل تشريع استعباد الأسرى وسبي النساء ونهب الأموال.

باب الإمــام

اعتقدت الزيدية بإمامة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وتوقفت عنده، (الإمام الرابع والأخير عند الزيدية)، والإسماعيلية عند إسماعيل بن جعفر الصادق وابنه محمد، (الإمام السابع والأخير عند الإسماعيلية) واختلفت الجعفرية الاثنى عشرية زمن الإمام الحسن العسكري حول بابية الإمام ووكلائه وسفرائه الروحيين المؤدين عنه، فآمن من سيطلق عليهم فيما بعد العلوية- الشُعيبية- النصيرية- النميرية ببابية أبي شعيب محمد بن نصير النميري، أعلنت بابيته العام ٨٥٩ وتوفي العام ٨٧٣، بينما أيدت المجموعة الأخرى وكلاء الإمام وكانوا أربعة، وهم من سيعرفون فيما بعد بالشيعة الاثني عشرية.

والبابية عند العلوية وظيفة دينية تأتي بالأهمية والمركزية بعد الإمامة مباشرة، كمرجعية دينية تنوب عن الإمام خاصة بعد الغيبة، وبغيبة الإمام المهدي الثاني عشر، توقفت البابية عند النميري، والذي كان أيضًا باب الإمام المهدي (ولكل إمام باب أولهم سلمان الفارسي باب الإمام علي)، بينما ترسخ الفكر العلوي الأناضولي لاحقًا على يد دعاة ومرشدين سيذكرون في حينه.

خلف النميري في مهامه وليس في مركزه محمد بن جندب، ثم محمد بن الجنان الجنبلاني ٨٥٠ - ٩٠٠، صاحب الطريقة العرفانية الجنبلانية.

أمّا الشخصية المؤثرة في ترسيخ العلوية فكريًا وعقائديًا (بعد النميري) فهو الحسن بن حمدان الخصيبي، الذي خلف الجنبلاني في قيادة الطائفة العلوية (ينسب له كتاب الهداية الكبرى)، وكان على علاقة وثيقة مع سيف الدولة الحمداني، وعضد الدولة البويهي، حتى عُدَّ من وكلائه السياسيين، ولنفهم فكر الخصيبي والفكر العلوي عامة علينا أن نأخذه كما نأخذ الصوفية، بوجدهم وسكرهم وشطحاتهم في الحب الإلهي، الظاهر والصريح، والسر المرموز، وما وراءه من مقاصد معمّاة مستورة، أو مباحة مكشوفة.

سلمان الفارسي

إن التعتيم المنهجي المقصود، الذي اتَّبعته السلطة تجاه كل فكر مناوئ لها، طال سيرة سلمان الفارسي على وجه الخصوص، فكونه فارسيًا سهَّل مهمة السلطة والدولة، التي انطلقت عنصرية وبقيت طيلة تاريخها المزيف والمزور بشكل لا يعرف له مثيل في تاريخ الشعوب والأمم والدول.

ومن خلال سيرته المبعثرة في كتب السير والتراث والأحاديث والتاريخ، نعرف أن سلمان رجل علم وفلسفة، ومن خلال بحثه عن الحقيقة والمعرفة، تنقل سلمان منطلقًا من بلده فارس من دين إلى دين، ومن شيخ إلى شيخ، وتعرض للنفي والرق، لتسوقه الأقدار ليصبح صاحبًا من أصحاب النبي محمد، والنبي هو الذي قرَّبه وقال عنه: "سلمان منَّا آل البيت"، وبقي سلمان بعد موت النبي الصديق الصدوق للإمام علي وآل البيت، إلى أن توفي في المدائن في العراق، ربما في العام ٣٦ هجرية.

ساعد سلمان، ابن البيئة الحضارية، المسلمين الأوائل البعيدين عن المراكز الحضارية (روما، اليونان، فارس، مصر، والهلال الخصيب) بمعارفه في الهندسة (الخندق مثلاً)، وفي الدين حول

الصابئة والمجوس، الذين أصبحوا في الإسلام من أهل الكتاب، وفي شرح الفلسفات والأفكار، والديانات المتداولة ذلك الحين في العالم المتحضر خارج جزيرة العرب، وقدَّم معلومات مهمة حول الأساطير والآداب الفارسية والتي نُقلت في التراث الإسلامي.

لم تهتم الدولة الإسلامية بما يسمى اليوم المجتمع المدني، فلا هي أنشأت مدارس، ولا أقامت طرقا، ولا بنت معاهد، بل كان همها هو جني ثمار الاحتلال من خراج وصدقات وجزية، فكانت دولة تقوم على اقتصاد الريع، وليس على اقتصاد الإنتاج، فساءت حالة المجتمعات المحكومة في ظلّ سياسة همها ملء خزائن الخليفة المشغول بالجواري والغلمان، فكان لا بدَّ أن تكون هناك معارضة واسعة، كانت تُقمع بالحديد والنار كلما عبَّرت عن ذاتها، طيلة العصر الأموي وما تلاه من عصور بني العباس وخلافة بني عثمان، في هذا الجو والمحيط، كان لا بدَّ أن تنظِّم المعارضة وقادتها حياة المجتمع والناس، لتصبح الحياة أكثر احتمالاً.

وفي العراق وطن المعارضة الأبديَّة لطغيان السلطة العربية الإسلامية، وظَّف سلمان الفارسي معارفه وملكاته وعبقريته في خدمة المجتمع والناس، فقام بتنظيمه على شكل جديد، فأصبح المجتمع عصيًا على الإذعان والتطويع وأدَّى تنظيمه هذا وسياسته إلى الإطاحة ببني أميَّة فيما بعد، بل وببني العباس إلاَّ قليلاً ليؤول الأمر لآل البيت، ولكن تلاشى أيضًا هذا النظام الذي بناه سلمان

الفارسي في المجتمع، مع الزمن لكثرة أعدائه ولكنه واجه السلطة على مدى تاريخه.

في العراق الحضاري حيث يتنوّع الإنتاج زراعة وصناعات زراعية وصناعة وتجارة وتتعدد الديانات والأجناس والثقافات (على عكس مجتمع الصحراء والبداوة الغائبة المتنقّلة التي لا تعرف أوطانًا بل حِمى) يكون حيث تكون، والولاء لا يكون لوطن بل للقبيلة أو العشيرة وقيمها، في العراق؛ وضع سلمان نظامًا دقيقًا ومتكاملاً (نقابات) للمهن والكارات والحِرَف.

أولاً: نظّم المعارضة في حركته الصوفية، وجعل لكل حرفة شيخًا يعاونه جناحان (نائبان) الأيمن والأيسر (نائب أول ونائب ثان)، وابتنى لكل حرفة بيتًا للجماعة (بيت الجمع)، تزاول فيها الصلاة، ويتداول أعضاء المهنة في كل ما يخص مهنتهم، ويستضيفون فيها الغرباء والمقطعة بهم السبل والفقراء، ويقدمون لهم إضافة للمبيت وجبات الطعام والرعاية ويضمون الصالح منهم إلى مهنتهم.

كما أن كل مهنة أنشأت صندوقًا تعاونيًا على أساس الخُمس، وبهذا يكون سلمان قد ساهم في تطوير أسس أول البنوك، وكان هذا الصندوق (البنك) يقدم القروض لأرباب هذه الحرفة، ويقدم العون لأرملة عضو النقابة في حال موته إلى حين تعليم أحد أبنائه الحرفة والإنتاج.

وكان شيخ الحرفة وجناحاه يضمان إلى الحرفة من يلتزم أخلاق المهنة ويتقنها جيدًا ويكون بعيدًا عن الغش وفتوة، أي فارسًا، يتمتع بالشرف والإباء وحسن الأخلاق ويكون على استعداد لأن يحمل السلاح مع بقية أعضاء النقابة في الأوقات الحرجة، إذا هاجمت الدولة جيوش الأعداء أو المساعدة في مواجهة الفيضانات والزلازل والمحن العامة كالأمراض السارية والمجاعات، ويستطيع شيخ النقابة فصل أي عضو من نقابته إن لم يتقيد بهذه القيم.

وجمع سلمان ٥٧ مهنة في نقابته الكبرى (كما تقول العلوية)، والتي امتدت من العراق إلى فارس والأناضول، وبشكل أقل إلى الشام ومصر بحكم الأوضاع السياسية السائدة، ووضع سلمان ما يشبه الدستور لكل مزاول حرفة، ونلخص ذلك بأن على كل حرفي:

- الانتساب إلى النقابة (بيت الجمع) أو يمنع من مزاولة الحرفة.
- نصح المشتري والابتعاد عن الغش، لا بل وتقديم الأحسن.
- مقت الاحتكار والالتزام بتحديد السعر الذي تفرضه النقابة.
- معاملةِ أجرائه بإنسانية وضمان حد أدنى للأجور.
- تعليم أحد النابهين أصول الحرفة ليأخذ مكان رب العمل في حال تقاعده أكان ابنًا له أو أجيرًا، ويتمُّ امتحان المرشَّح للمهنة من قبل ربِّ الكار وجناحيه.
- المشاركة في بيت الجمع (الصلاة) عادة ليلة الجمعة.

- المساهمة في صندوق نقابة حرفته بالخُمس من أرباحه.
- التدرب على حمل السلاح ليصبح (فتوة) أي فارسًا، مع كل ما تحمل هذه الكلمة من قيم.
- التصرف بشرف مع النساء والضعفاء والفقراء.
- مساعدة الملهوف وصاحب ذي الحاجة والمحتاج.
- التقيُّد بتعاليم ربِّ الحرف سلمان الفارسي.
- الإيمان بعدالة الإمام علي والأئمة بعده وعصمتهم.

لقد استطاعت هذه النقابات مواجهة عسف الدولة وظلم السلطة، وكانت موازية لها، فكل ما كان إيجابيًا من بناء ونهضة ما كان ليتم بدون هذه النقابات، والتي امتدت من نقابة الورَّاقين (نساخي الكتب وبائعي الورق)، مرورًا بكل المهن حتى الحطابين، والتي أصبحت بما يشبه المذهب، والتي لا تزال موجودة حتى يومنا هذا في بعض جبال الأناضول وتحمل القيم العلوية التي بشَّر بها سلمان الفارسي.

وبعد أن تمَّ اختراق أكثر هذه النقابات، وإفراغها من قيمها وأخلاقها من قِبل الدولة التي كانت ترى فيها منافسًا لها، انهار المجتمع بكامله وتمزق وخرج الشرق من خانة الفعل والحضارة إلى خانة الانحطاط والمفعول به.

علويو الأناضول

الوردة، حاج بكتاش ولي

لم أجد في كتابة هذا المقال بُدًا من الاستشهاد ببيتي شعر لأبي العلاء المعري، حين يقول:

يرتجي الناس أن يقوم إمـــام   ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا إمام سوى العقل   مشيرًا في صبحه والمساء

المعري الذي وُصِفَ بين ما وُصِفَ به بأنه زنديق وكافر لاتهامه بالعلوية، يلوم الرعية لقعودها وانتظارها لراع يقودها كما يأخذ عليها تغييبها للعقل بدل الاعتماد عليه، وينشد (يونس أيمره) الشهيد القديس عادة بمرافقة الساز ورقص السماح المقدس، وإعلانه بعد أربعين عامًا من طلب المعرفة أن لا حقيقة في الكون سواه، كما يحضرني موال للحلاج في نشوته اللامتناهية في الحب الإلهي برفقة الناي الذي يحمل في الأناضول اسمه: ناي منصور:

نسمات الروح قولي للرشا   لـــم يزدن الورد إلاّ عطشـــا
لي حبيب حبه ملء الحشا   إن يشا يمشي على خدي مشا
روحه روحي وروحي روحه   إن يشا شئت وإن شئت يشا

ويقول القطب الكبير حاجي بكتاش ولي، كما يُسمى في الأناضول، ويصور وفي يده الوردة الحمراء شعار الأناضولية البكتاشية: "احترم كل الديانات والعقائد كما تحترم عقيدتك ليس بالقول فقط بل بالفعل أيضًا".

يحتل المتصوف الكبير والشاعر حاجي بكتاش ولي – مؤسس الطريقة البكتاشية – المكانة الرئيسية عند العلوية الأناضولية ويعتبر أحد شيوخ الطائفة العلوية، وُلِدَ بكتاش ولي في العام ١٢٠٩ الميلادي في نيسابور بخراسان لمحمد وخاتم خاتون في الجيل السابع عشر للإمام علي، تتلمذ في تركستان على يد الخوجة أحمد يَسَوي – أحد الشعراء الكلاسيكيين الأتراك وصاحب ديوان الحكمة – وتعرّف على المدارس والفرق الصوفية المختلفة ودرس الديانات، وتدرج بالمعرفة ليبلغ الدرجات العليا، عندها كلّفه المتصوف والداعية العلوي لقمان بارنده تابع الشيخ أحمد يسوي الذهاب إلى الأناضول لنشر التعاليم العلوية بين الناس بلا تفرقة بين الأعراق والديانات، وبعد أن زار بغداد، سافر إلى النجف ليدرس في جامعتها الدينية لمدة سنتين، ثم عاد إلى الأناضول ليتجول في مدنه وقراه، فوجد طرقًا وزوايا ذات اتجاه علوي، وتحتوي على مؤشرات شامانية (الكهانة عبادة الطبيعة التي كانت ديانة الأتراك القدماء) والتي قدمت مع البدو التركمان من أواسط آسيا، والذين شكّلوا فيما بعد النواة الصلبة للعلوية، ثم كانت هناك

تأثيرات زرادشتية ومسيحية قوية، ولكنه استطاع في النهاية توحيد هذه الطرق خلف تعاليمه دون أن يتخلى عما في هذه الطرق من إيجابيات وقيم إنسانية، ثم استقر في منطقة نيوشهر بمدينة صغيرة كانت تسمى صولوجا قارا هوييك، أصبحت تعرف الآن بمدينة حاجي بكتاش، وإضافة إلى توحيد الطرق والزوايا الصوفية تحت لواء تعاليمه وطريقته البكتاشية، وجد تجاوبًا كبيرًا في الأوساط الوطنية الفلاحية المظلومة والمسحوقة تحت نير إمارات السلاجقة وجيوشهم الشرهة للنهب والسلب والقتل، وتبع تعاليمه بشكل خاص البدو التركمان، وكان أحد مريديه الأمير أورخان بك، القائد القوي، فأسس جيشًا نظاميًا كتب حاجي بكتاش نشيده والذي أخذته الجيوش العثمانية لتصبح الموسيقى العسكرية منسوبة لها، وفيما بعد أخذت بها جيوش العالم كافة، وأصبحت الأساس للأناشيد الوطنية للدول، ووضع حاجي بكتاش لهذا الجيش قيمه الفروسية والإنسانية، وسماه يني تشاري (الانكشاري) أي الجيش الجديد، وشارك هذا الجيش في صدّ هجمات الغزاة وجيوش النهب والسلب والقتل المستهدفة للفلاحين (عندما غزا الأتراك العثمانيون الأناضول، تبنوا فكرة هذا الجيش بعد أن أفرغوه من قيمه الفروسية واحتفظوا ببعض التقاليد وبموسيقاه).

أصبح بكتاش ولي بمثابة مُخلّص لجموع سكان الأناضول بفضل كراماته وتعاليمه التي كانت تصبُّ في مصلحة الإنسان، وطال

تأثيره الكثير من جهات الإمبراطورية العثمانية، فوصل إلى البلقان والقوقاز وآسيا الوسطى، شكّلت تعاليم بكتاش ولي التي خطا بها خطوات واسعة إلى الأمام بانيًا على فكر رواد العلوية الأوائل العمود الفقري للطريقة البكتاشية، والتي تتطابق بشكل شبه كامل مع التعاليم العلوية والمبنية على تقديس الله، والإنسان، والطبيعة، واحترام كرامة الإنسان معنويًا وجسديًا، تحت أي ظرف حتى المختلف بالفكر والعقيدة، لأنه المخلوق الأكمل وسكن الله وصورته، وبالتالي هو محور الكون، فمن يُكرّم الإنسان يُكرّم الله.

يقول بكتاش ولي: لا تهن إنسانًا حتى الذي أهانك لأن الله ساكنه، وافعل الخير مع كل الناس لأنك بذلك تُكرّم الله في داخله، وبالطبع يأتي على رأس هذه المحبة الإمام وآل البيت، وفسح الولي بكتاش المجال لتطوير الفكر العلوي بدون توقف قيمًا وأخلاقًا.

ترسّخت العلوية كديانة وتعاليم خلال الأحداث الدينية والسياسية العاصفة في القرنين الثالث والرابع عشر ميلادي، وازدهرت بشكل خاص جنوب بحر قزوين بين التركمان الذين شاركوا إلى جانب الصفويين في الصراع العقائدي والسياسي، واستطاع العلوية بعد انتصارات متلاحقة تنصيب قائدهم الروحي الطفل آنذاك الشاه إسماعيل الصفوي شاهًا على إيران عام ١٥٠١، وكان أفراد الطرق العلوية يعتمرون غطاء رأس أحمر كإشارة على شرف الانتساب للعلوية، فأصبح يُطلق عليهم ذوي الرؤوس الحمر (قزل باش).

لم يستطع الشاه إسماعيل التوفيق بين التعاليم العلوية والمذهب الشيعي الإثني عشري، مذهب الأغلبية في إيران وبناءً على ذلك، لم يرَ بُدًا من أن يعلن في النهاية أن الجعفرية الإثني عشرية هي المذهب الرسمي لإيران، وبقيت العلاقة الروحية تربط العلوية بالعائلة الصفوية وبمراكزها الدينية في إيران (يُعتبر الشاه إسماعيل الصفوي أحد شعراء العلوية ومفكريها العظام والمقدسين) وفي الوقت ذاته، كانت ضغوط العثمانيين تزداد على الأناضول بالكامل، وقاموا بسلسلة إجراءات عنيفة بدأت بتجريد الأرستقراطية التركمانية العلوية من امتيازاتها، ثم بملاحقة وقتل كل من يشتبه بأنه (قزل باش) لاتهام العثمانيين لهم بأنهم يوالون الصفويين، مما دفع الكثير من هؤلاء إلى إنكار عقيدته أو التخفي أو الهرب أو ممارسة التقية.

دفعت هذه الإجراءات العلوية الأناضولية إلى سلسلة من الثورات، التي قُمعت بالحديد والنار، وعلى إثرها قاد السلطان بايزيد الثاني عام ١٥١١ حملة إثر ثورة (شاه قولو) استولى فيها على معظم الأناضول وقتل الآلاف من العلوية هناك، وفي العام ١٥١٣؛ نظَّم السلطان سليم الأول، وهو في طريقه لمحاربة الصفويين، مذابح ضد العلوية راح ضحيتها من ٤٠ إلى ٦٠ ألف علوي، ثم استمر الاضطهاد العثماني الموجَّه ضد العلويين إلى حين سقوط خلافتهم.

الفكر العلوي الأناضولي

نشأته وتطوره

لم تجد الجماعات العلوية المنسحبة إلى شرقي الأناضول، خلال الزحف العثماني، سوى تعاليم الولي بكتاش لتهتدي بها، خصوصًا بعد انقطاع أي اتصال بين العلويين هناك وبين مراكزهم الروحية في إيران، لقد أسس الولي بكتاش مركزًا روحيًا هامًا في الأناضول ما يزال العلويون يحتفلون فيه سنويًا بين ١٦-١٨ آب/أغسطس تخليدًا لذكراه.

على أن للعلويين اتجاهات عديدة؛ كالأخوية البكتاشية وطرق ومدارس صوفية أخرى غيرها كالحروفية والكاكائية والخلوتية والعلي الإلهية والشبك وأهل الحق، وينظر العلويون إلى هذا التنوع كغنى ثقافي وديني، وليس عامل تشظٍّ أو خلاف، إن الله عند علوية الأناضول جميعًا حاضر وفاعل ومتجلٍ باستمرار في الكون كله، فهو لم يقل كل ما عنده في كتاب جامع مانع ينسخ ما قبله من شرائع وأحكام ولا حق لأحد أن يخرج عنها إلى يوم الدين، ذلك أن الدين ليس أيديولوجية جامدة ثابتة، بل هو حركة

فاعلة في الزمان والمكان، والله حاضر يتجلى لعشاقه فيناجوه ويناجيهم ويحبوه ويحبهم.

على الرغم من هذا الفهم لله الذي يتميز به العلويون، فإنهم لا يُنكرون على أصحاب الديانات الأخرى إيمانهم، فالمسيح، ومحمد، وعلي والأئمة من بعدهم ومشايخ الصوفية والولي بكتاش والحلاج وأمثالهم قالوا الحقيقة حين نطقها "اللاهوت" بلسان "الناسوت"، والعلوية الأناضولية هي تعاليم ودين وصوفية وفلسفة وفنون وممارسة حياتية يومية في آن، والعلوي الحق هو من يحمل المقدس (الله، محمد، علي) في قلبه، يحترم الديانات والمذاهب والمِلل الأخرى، يُحارب العنصرية بكل أشكالها، ويُدافع عن العدالة والمساواة لجميع الناس، إضافة إلى الإيمان بوحدة الوجود (الله، الإنسان، الطبيعة) والعمل على نظافة اليد واللسان والعفة، وإيلاء العلم قيمة مقدسة، وواجب تعليم النساء.

وما يلفت النظر، أن العلوية الأناضولية لا يعطون للشريعة الإسلامية أي مساحة في تعاليمهم المعمول بها، فهم لا ينظرون إليها كتعاليم إلهية، بل يجدونها تحمل الكثير من التطرف والعنصرية، ولذا فهم يؤولونها بصورة مختلفة عما لدى السنة والشيعة، فالقرآن ليس نصوصًا جامدة وثابتة، بل هو مقاصد عليا تُدرك بالعقل وتخضع لنسبية الزمان والمكان، ولا تتعارض البتة مع كرامة الإنسان بأي شكل كان، فالإنسان هو خلق والله الدال

على قدرته، وليظهر جماله من خلاله، فهو في خاتمة المطاف، صورته على الأرض وهيكل قدسه.

وتؤكد التعاليم العلوية على احترام خاص للمسنين الذين يلعبون دورًا رئيسًا في إرشاد الشباب إلى التعاليم العلوية شفاهة أو كتابة، ويقوم بهذه المهمة شيخ الطريقة: دَه دَه أو ولي أو بير أو بواسطة شعر الحلاج المصلوب أو نسيمي المسلوخ أو يونس أمره الشهيد، ولعل أهمها تعاليم الولي بكتاش.

اجتماعيًا، تنصُّ تعاليم العلوية الأناضولية على التساوي المطلق بين الرجل والمرأة على كل الصعد الدينية والدنيوية، بما في ذلك الإرث، وتُحرِّم التعاليم الزواج بأكثر من امرأة، وليس هناك طلاق تعسفي، والمخالف يُقاطَع اجتماعيًا، ولا يسمح له بالمشاركة في القداس (الصلاة)، ويأخذ العلوي الأناضولي وضعية الحلاج، الذي أجبر أن يجثو ليقطع رأسه عندما يعرض قضيته على الأئمة ليتلقى الحكم قبل تأدية الصلاة.

تؤمن بعض المدارس العلوية بأن الله أوحى لمحمد بالقرآن، ولكنهم يؤمنون في الوقت نفسه بأن هذا القرآن ليس موجودًا، (بعد أن قام الخليفة الثالث عثمان بن عفان بحرقه)، إلا عند المقدَّس علي، الذي قام بتبليغ كلامه للناس، وينطق العلويون بكلمة الشهادة، وهي مختلفة أيضًا عما هو سائد لدى السنة، حيث

يرددون أن لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وعلي ولي الله، وهم لا يصومون شهر رمضان بل اثنتي عشر يومًا ابتداء من العاشر من شهر محرم، ولا يصلون خمس مرات في اليوم، بل مرة واحدة عادة في المساء ويصلّون جماعة ليلة الجمعة في الغالب، ولا يحج العلويون، ذلك أن الله ليس في مكة ولا في القدس، فهو في قلب الإنسان، أما زكاتهم فهي فعل الخير والمعروف مع كل إنسان.

تصب التعاليم العلوية في الحاضر ومن أجل الحياة وليس من أجل اليوم الآخر، فعلاقتهم بالله ليست علاقة خوف بل محبة، ولا تُبنى على مبدأ الثواب والعقاب (العصا والجزرة)، فهذا بنظرهم يبعدهم عن الإيمان، ويسلب الإرادة والحرية والمحبة المجرَّدة، في هذا السياق، قال الحلاج: "لا أطمع في جنتك ولا أخاف نارك، أحبك على التجريد"، فالله بهذا المعنى ليس ذاك البعيد المجهول الغاضب والباعث على الخوف والرهبة بل هو إله الحب والخير والجمال المتجلّي في الإنسان وفي الطبيعة.

وتُشير التعاليم العلوية إلى أن قوى الخالق المقدسة (العقل) تنتقل إلى الإنسان بواسطة محمد وعلي وأولاده وأحفاده الأئمة (الذين انتقلت إليهم من موسى والمسيح)، رجلاً كان أم امرأة، علوي كان أم مسيحيًا، فالإنسان هو الأكمل والأجمل، العقل إذًا، ماض وحاضر ومستقبل، هو قوة إلهية منحها الله للإنسان ليعرفه، ولا يصل الإنسان إلى هذا المقام إلا بالمعرفة، فيستطيع أن يختار بحرية

مطلقة بين الخير والشر، والله لا يتدخل في هذا الاختيار، فهو لا يدفع الإنسان إلى الخير أو إلى الشر، ولا يقترب الإنسان من الله من خلال شريعة يخضع لها فيجازى أو يجزى بجنة أو نار، بل بمحبة الله للإنسان، ومحبة الإنسان لله المتحررة من كل قيد أو شرط، ولا يتم هذا في حياة واحدة بل في حياوات عديدة من خلال التقمص، حيث أعطى الله الفرصة للإنسان كي يزداد اقترابًا بالمعرفة وبالحب وبحرية مطلقة.

أخيرًا، تُعلِّم العلوية الأناضولية أن سيرة حياة الإنسان وعلاقته بأخيه الإنسان وبالطبيعة تجعله يقترب من الله، وهو بهذا يحتاج إلى مُعلِّم كي يأخذ بيده ويُرشده إلى المقامات الأربعة، ولكل منها عشر وصايا وهي أسرار لا يصل إليها أحد من دون مرشد ودليل.

ونلاحظ تقديسهم للأرقام والحروف، وهناك فرقة علوية تُسمى الحروفية، وتظهر صورة (كاليغرافي) وجه الإنسان المؤلف من حروف اسم علي، والأربع مقامات، الأربع جهات، الأربعين وصية، رمز معراج الرسول إلى السماء، والصلاة بالأربعين نبي ورسول.

وإذا كانت الشائعات والأقاويل الملفّقة حاصرت العلوية الأناضولية بإسار من حديد، فإن قمع السلطات التركية المتعاقبة قد أراق مزيدًا من الدماء، كي يقضي على كافة أشكال التنوع، وليؤبد ديكتاتورية يعضدها السلاح وتُبررها الفتاوى.

العلوية وتركيا

لا تعترف تركيا بالعلوية، تعاليم أو ديانة أو حتى مذهبًا رسميًا. ففي "الجمهورية التركية قومية واحدة، الترك، ودين واحد، الإسلام السني، وعَلَم واحد"، وهو ما تبناه كمال أتاتورك في العشرينات، ولا يزال شعارًا لتركيا حتى اليوم.

وحتى في ظل الثورة الكمالية التي أعلنت الجمهورية بدستور علماني، وألغت المحاكم الشرعية، تمَّ تجاهل مطالب العلوية، بل زادت معاناتهم خاصة بعد صدور قانون في العام ١٩٢٤ ينصُّ على وحدة الدين (المذهب السني) والدولة، وإنشاء إدارة الشؤون الدينية، والتي ألغت في العام التالي الطريقة البكتاشية العلوية، ومع هذا الإلغاء صدر تصريح يؤكد على عدم وجود دين في تركيا سوى الإسلام (السني)، أو قومية سوى التركية، أي سحب أي اعتراف بالعلوية حتى ولو كان ضمنيًا.

بدأت الحكومة التركية سياسة إلغاء العلوية بدل تهميشها بعد انقلاب العسكر في العام ١٩٨٠، وفرضهم دستورًا جديدًا في تركيا في العام ١٩٨٢، يتضمن إلزامية تعليم الدين في المدارس، وبما أن الدولة التركية لا تعترف بالمذهب العلوي، أي بمذهب ثلث

سكان تركيا، ويبلغ عددهم نحو ٢٢ مليون علوي؛ فكان لا بدَّ للتلاميذ والطلاب العلوية من تعلم المذهب السني. يحدث هذا بالرغم من احتجاج التلاميذ وأهاليهم على هذه المادة، خصوصًا أن بعض التأويلات في المذهب السني تجعله يتعارض والتعاليم العلوية، ويتعرض لمعتنقيها بالذم والتكفير، وتمادت الحكومات التركية في ردِّها على اعتراض العلوية على إلزامية التعليم الديني، باتخاذها إجراءات أكثر حدة لإلغاء العلوية بشكل فعلي، وذلك ببناء مساجد (يسميها العلوية مساجد ضِرار) سنية في القرى العلوية وتزويدها بأئمة سنة، علمًا بأن العلويين لا يؤمون مساجد السنة للصلاة فيها، إذ أن لهم دور عبادة خاصة بهم، هي "بيوت الجمع".

وبالرغم من أن الدستور التركي ينصُّ على فصل الدين عن الدولة، إلا أن الحكومات التركية ترعى وتموِّل نحو ٩٠ ألف مسجد، وتدفع رواتب لنحو ١٠٠ ألف إمام، إضافة لتمويل معاهد دينية ٤٠٠ ألف طالب، ومدارس تحفيظ القرآن (٤٥٠ ألف تلميذ). ويسهم دافعوا الضرائب العلويون في هذا التمويل بالرغم عنهم، وبدون أن يستفيدوا من كل هذا، وترفض الدولة التركية إنشاء دور عبادة ومدارس دينية علوية وتمويلها، كما ترفض دفع رواتب لرجال الدين العلوية أسوة بأئمة أهل السنة.

عانت العلوية الأناضولية من حكم السلاجقة، وطيلة عهود خلافة بني عثمان، ولا تزال تعاني في ظل الجمهورية مع سياسة

التحريض المستمر ضدها، مما أدى ويؤدي لتجاوزات يومية بحق معتنقيها من قِبَل السلطة والمتطرفين على السواء.

ففي رمضان العام ١٩٩٥ مثلاً، هاجم مسلحون متطرفون مقاهي فقراء العلوية على أطراف مدينة اسطنبول، فقتلوا وجرحوا العشرات لعدم التزامهم صوم رمضان. وعندما تراخت السلطات التركية في ملاحقة المجرمين هبّت تظاهرات تطالب بتطبيق العدالة والدستور ولكنها قُمِعَت على أبشع الصور، بأن قتلت الشرطة ٢٧ متظاهرًا وجرحت المئات، إضافة إلى سجن العشرات. وقبل هذا، في العام ١٩٩٣، هاجم الرعاع المتطرفون في مدينة سيواس فندق ماديماك الذي استضاف مثقفين وفنانين علويين وعلمانيين لإحياء ذكرى الشهيد بير سلطان عبدال الثائر على الظلم، وحاصر المهاجمون الفندق لمدة ثمانية ساعات ثم أحرقوه بمن فيه على مرأى الشرطة ورجال الأمن، فقتل ٨٠ شخصًا حرقًا بينهم نخبة من خيرة مثقفي تركيا وفنانيها، وأهملت القضية برمتها بعد ذلك، ما دفع العلوية لاتهام الدولة بتدبير هذه المجزرة لترويعهم.

أدّت الضغوط العثمانية وسياسة الجمهورية التركية الإرهابية الهادفة إلى إلغاء العلوية الأناضولية إلى بروز هوية العلويين التي أخذت تتنامى باضطراد، خاصة بعد أن أخذ الشباب العلوي يؤكد انتماءه إليها، وبدأت منظمات وجمعيات علوية ومثقفون طرح مطالبهم على دول الوحدة الأوروبية، حيث يعيش ويعمل أكثر من

مليون علوي أناضولي (٦٠٠ ألف في ألمانيا وحدها، و٦٠ ألف في النمسا)، وبدأت هذه الدول تعي مشاكلهم، وتدعم اتحاداتهم ومنظماتهم، أسوة بغيرهم من الأقليات الدينية والعرقية، وجرى في مناخ الحرية السائد في دول الوحدة الأوروبية طرح الفكر والثقافة العلوية، فراحت القضية تكسب الكثير من الأصدقاء والمتعاطفين، خصوصًا أن التعاليم العلوية تؤكد التزامها الديمقراطية وحقوق الإنسان، وبدأ الكثير من مثقفي الغرب الدفاع عنها، بل قبولها كثقافة وتعاليم عالمية، تمقت العنصرية والعنف وتمجد الإنسان، ولا تدَّعي أنها تحتكر الحقيقة، وكنموذج لإنسانية الفكر الشرقي وكأساس مع من يماثلها لانطلاق نهضة الشرق.

تحت ضغوط العلوية الأناضولية، بدأت دول الوحدة الأوروبية تضغط بدورها على تركيا التواقة لعضوية الوحدة الأوروبية، والتي عليها قبل هذا إجراء سلسلة من الإصلاحات في الديمقراطية وحقوق الإنسان والاعتراف بمطالب العلوية المتماثلة مع تعاليمهم، مثل: عدم المساس بكرامة الإنسان تحت أي ظرف كان، لا معنويًا ولا جسديًا، والمساواة التامة بين الرجل والمرأة بدون استثناء.

من هم العلويون؟

يمتزج في هذا الإطار عدد من القوميات المختلفة من عرب وأكراد وتركمان وأتراك وآخرين غيرهم، ويعزو بعض المؤرخين بداية ظهور العلويين إلى زمن الصراع على السلطة بعد وفاة النبي محمد وغلبة الجناح المناهض للإمام علي وآل البيت عمومًا، ما مهَّد للحملة على آل البيت طيلة عصور الخلافة الإسلامية بدءًا بقتل الإمام علي وذريته وأحفاده، ولم ينج من القتل سوى الإمام الثاني عشر المهدي الغائب الذي ينتظر العلويون كما الشيعة عودته. كما تُعتبر مأساة كربلاء واستشهاد الحسين بن علي إحدى المحطات التاريخية المؤلمة لدى العلويين على طريق الشهادة والفداء، إضافة إلى الحيف الذي لحق بآل البيت جميعًا.

ومما يشار إليه في هذا الصدد أن الكثير من العلويين لا يقولون إنهم ينتمون إلى طائفة أو فرقة إسلامية، بل يقولون إن تعاليمهم تؤكد على أنهم ينتمون إلى دين قائم بذاته وصلته بالإسلام لا تتعدى بعض الجوامع التاريخية المشتركة.

تبنى العلويون مبدأ "التقية" للدفاع عن النفس ودفع الأذى عنهم، وأجبروا على هجر قراهم ومناطقهم ليتراجعوا إلى شرق الأناضول

باتجاه الجبال العصية، ليمارسوا هناك طقوسهم الدينية، وليشكّلوا جماعة مغلقة جراء السياسة العثمانية التي تنكر وجودهم خارج إطار المذهب الرسمي السني.

لقد ظلّت العلوية الأناضولية ردحًا من الزمن مهمشة وشبه سرية حتى الثورة الكمالية وإلغاء الخلافة ومحاكمها الشرعية وإعلان الجمهورية بدستور علماني.

ينتسب إلى العلوية في الجمهورية التركية نحو ثلث السكان، ٢٢ مليون علوي، غالبيتهم من المتحدّثين بالتركية (شعوب الأناضول الأصليين، أو المتتركين، وأبناء القومية التركية)، ويقدر عددهم بخمسة عشر مليون، ومن الأكراد بما فيهم الزازائية نحو خمسة ملايين، إضافة إلى أكثر من مليون عربي في أضنة، ومرسين، واسكندرون، وأنطاكية، ونحو مليون تركماني. ويطلق الأتراك السنة على العلوية أسماء عدة منها العلويون القزل باش (الرؤوس الحمر) التركمان، فيما يسمون هم أنفسهم علوية، إضافة لأسماء محلية تبعًا للطريقة والمنطقة والعشيرة مثل بكتاشي، عبدالي، ألتشي، طالبي، نالجي. وكان وصفهم بالقزل باش شائعًا على نطاق واسع خلال القرن الثالث عشر، عندما بدأت تسمية العلويين تحلُّ محلها بعد أن أصبح القزل باش مستهدفًا في حياته وماله.

مدخل إلى التعاليم العلوية

يخفي ظاهر الكون أسرارًا قد تخالف هذا الظاهر أحيانًا، وتلغي حقيقة هذا الظاهر المعتمد على الحواس أحيانًا أخرى. فكوبرنيكوس وجاليليو ونيوتن وآينشتين وداروين وغيرهم أثبتوا هذا بالعلم والتجربة والعقل والاختبارات، أن ما تراه حواسنا من شروق الشمس وغروبها لا يعني أنها تدور حول الأرض، كما كنا نعتقد، بل الأرض تدور حول الشمس، والعلوم العرفانية أثبتت عقليًا أن وراء ظاهر الكلام المقدس وما قاله الأنبياء والأولياء أسرارًا مخفية تحدثت بها العلوية والإسماعيلية والصوفية، والدين عند أهل العرفان وأهل الإحسان والإيمان لا يتعارض مع المقاصد العليا للكون الذي هو الله المتجلّي في كل ذرَّة من ذرَّاته، والتجلّي نقيض العدم، فها هو ذا عبد الغني النابلسي يكشف بعض الرموز في قصيدة له تقول:

ويح إنسان يناجي صـــورة ذات انفعال

يعبـــد الله الـــذي في عقلهِ ولا يبالـــي

وإذا قيـــــل لـــه الـــرب بادٍ في الجبال

وبـــأرضٍ وسماءٍ وبضـــوءٍ وظـــــلال

وبنـــــاسٍ وبجــنٍ   وبأمـــلاكٍ عجــــالٍ

وبأطيـــــارٍ ونحــلٍ   وبخَيــــلٍ وبغـــالٍ

قـــــال مع إنكـــاره   ما قلته يبغي جدالي

يتعالـــى الله عمـــّا   قلته يا بن الحــلال

كــل هـــذا قلتـــه   لـــــي باحتفــــالٍ

جــلَّ ربي وتعالـــى   عنــــه مـــع كل مجالٍ

ما درى المسكين أن   الله يجلى بالمجالـــي

إنها الشطحات الصوفية التي تقبل تأويل الموافق والمخالف كقول الحلاج:

وأي أرضٍ تخلو منك حتى   تَعَالوا يطلبونك في السماء

تراهم ينظرون إليك جهرًا   وهم لا يبصرون من العماءِ

التعاليم العلوية:

بسبب انقطاع التواصل بين مراكزها الروحية وتباعدها أحيانًا، كان لابد من ظهور اتجاهات وطرق ومدارس في العلوية، وينظر العلوية إلى هذا التنوع كغنى ثقافي ومعرفي غير قابل لتأسيس أي خلاف.

وقد نجد في العلوية من التنوع ما لا نجده في أية عقيدة أخرى، ورغم ذلك يعمّ الانسجام بينهم ولا يُنكر أحدهم على الآخر اختلافه

عنه، فهناك من يقولون من العلوية إنهم جعفرية، ويضيفون: ولكننا لسنا شيعة، ويكتفي آخرون بالقول بإنا علوية ولا شيء غير ذلك. وهناك من يقولون إننا مسلمون علوية، والبعض يرفض كونه مسلمًا لأن دينه العلوية، ويؤمن جميع العلوية بالقرآن، ولكن بطرق مختلفة، فالبعض يؤمن به كما هو ولكنه يختلف في تأويله مع الإسلام التقليدي، لدرجة أن لا اتفاق على ذلك بينهم، والبعض يؤمن بأن هناك قرآن ابن مسعود، المختلف عما بين أيدينا. وآخرون يقولون إن القرآن قد بُدِّل فزيد به وأنقص منه آيات ليوافق أولئك الذين ناصبوا الإمام علي العداء وأقصوه عن الخلافة، وخاصة عثمان الذي صاغه ليستمر ملك بني أمية. والأكثرية تقول إن القرآن الذي نزل على الرسول لم يبق منه شيء، وإن القرآن، هو ما حفظه الإمام علي ونطقه بأقواله وطبَّقه بأفعاله، ولكن الجميع يتفقون على عدم الإيمان بأيديولوجية دينية ثابتة ونهائية، بل يؤمنون بقرآن كسفر كوني مفتوح لا نهاية لآياته، يبلّغ للكون بلسان الناسوت والوحي مستمر، لأنه العقل السرمد يسكن الإنسان فيعرج بواسطته إلى السماء أثناء صلاته. وهذا ما يؤكده معراج الرسول محمد إلى السماء وصلاته بالأربعين قديس (ولي)، فلا انفصال فعلي بين السماء والأرض لأنهما يكونان معًا الحقيقة، فالإنسان يتأله ويعرج إلى السماء، والإلهي يتأنس ويظهر لخلقه.

العلوية وأركان الإسلام الخمسة:

تحدَّثنا عن الشهادة، أما عن الصلاة يقول حاجي بكتاش: "لا تصلي بركبك بل بقلبك"، أهم كتاب مقدَّس للقراءة هو الإنسان، وصلاة العبد هي التي تنير الأفكار المظلمة في نفسه، بالبحث عنه تجده في داخلك، وصلاة الجماعة تتمُّ في بيت الجمع، عادة مساء الخميس.

يقول البعض إنهم لا يصلون في مساجد لأنه لم تكن هناك مساجد أيام الرسول، وإن أول مسجد بناه عمر، وهناك من يقول إن السبب هو أن الإمام علي قتل في مسجد، وأخبرني أحد مشايخ العلوية الأناضولية بأن سورة براءة صريحة بضرر بناء المساجد والصلاة بها، وبأن كيفية الصلاة ليست موجودة في القرآن.

والعلوية الأناضولية تتشارك في أن الله في كل مكان، وتجوز الصلاة له في كل مكان، وكل بيت يذكر به الله ويصلى له فيه هو بيت الله، للرجال والنساء، ويجب على المشاركين في الصلاة أن يكونوا بأنظف حال وأحسنه، وتتم مصالحات قبل بدء الصلاة، وفي المسائل المعقدة يشارك الأئمة في المصالحة ويفرضون الحل، إذ لا يجوز أن يشارك أحد في الصلاة وفي نفسه حسد، غل، حقد أو كراهية تجاه أي إنسان آخر، بل عليه أن يتوجه إلى ربه وقلبه مليء بحبه وبحب أخيه الإنسان.

يجلس العلوية في الصلاة متقابلين ليواجهوا بعضهم بعضًا أي يواجهون الله المتجلي في صورة الإنسان، وتبدأ الصلاة عادة بأدعية وبخطبة، وترافق النصوص الدينية أو الشعرية لشعراء العلوية قراءة مقامات أو قصص دينية على آلة الساز تُشيد بآل البيت وبالإمام علي بصورة خاصة. والصلاة هي حالة فرح وسرور لأنك تعرج بها إلى السماء، ويشاهد كل حسب قدرته ما يستطيع، ويناجي بعضهم الله ويناجيهم، يرافق الساز رقص السماح (في الأصل رقص السماء) المقدس (وليس الشعبي) من الجنسين، وهي مرتبطة بالفعل تؤدى على شكل الدوران في حلقة من خلال الإمساك بالأيدي أو وضع الكف اليمنى على القلب دليلاً على الثقة بالنفس وبالآخر وإيمانًا بالمبادئ العلوية وتكون وجوههم دائمًا إلى ناحية الشيوخ، وتنتهي الصلاة بتوزيع المأكولات بين المصلين (كل عائلة تأتي بما يتيسر لديها)، وعادة تكون كل عائلة متآخية مع عائلة ثانية في السراء والضراء، وهذا الفعل الاجتماعي يؤسس للتعاون بين الناس في مجتمعهم، خصوصًا أيام المحن التي تمرّ عليهم.

كما يتعلّم الطفل مشاركة الآخر ما يملك، وهو ما ينقذه من الأنانية، ويبدأ صغيرًا تعلم حب الإنسان بالفعل وهو العطاء، والصلاة تبقى عند العلوية الأناضولية مناجاة مع الله ومعراجًا إلى السماء، قد تطول وتقصر ولا تتم بالركوع أو السجود بل بالقلب.

ويؤمن العلوية بالتناسخ لأن الجنة والنار (مبدأ الثواب والعقاب) لا تتفق مع العدل الإلهي، فمن يعمل صالحًا تكون له حيا- أفضل من سابقتها من حيث معرفته لله والقرب منه، ويظل الإنسان يتقرب إلى الله حتى لا يبقى سواه، ومن يفعل سوءًا يُعطَ فرصة بل فرصًا عديدة لتعديل سلوكه والتقرب من الله بالعرفان.

وقد يفيدنا الشيخ محي الدين ابن عربي المعتبر ابنًا للطائفة العلوية في حل إشكالية العدل الإلهي والجنة والنار بقوله:

عمَّ بالغفران أصحاب الذنوب بعد أخذ وابتداء للعموم
غير أن الأمر قد قسَّمه بين سكنى في جنان وجحيم
وكلا الصنفين في رحمته في التذاذ دائم فيه مقيم

وهذا المعنى هو عين ما قاله الجلّي في كتابه (الإنسان الكامل): "إن إبليس والشياطين والكفار منعمون في النار، كما أن آدم والأنبياء والمؤمنون منعمون في الجنة".

مع تأكيدنا على أن تفسير هذين القولين هو مثل تفسيرنا لمجمل أقوال الصوفية، حيث يخفي ظاهرها الحقيقة المرموزة، والتي قد لا يستطيع فهم المراد منها سوى أهل الإحسان والإيمان، إذ ليس من المعقول أن ظاهر هذا القول يشجع على المعاصي وارتكاب الذنوب.

الصوم:

وكمثل الصلاة، للعلوية موقفٌ من الصوم، فهناك من يصوم شهر رمضان (تقية)، ولكنهم يصومون اثني عشر يومًا، اعتبارًا من العاشر من محرم (ذكرى الحسين في كربلاء) وهو الإمام الأهم لدى كثير من العلوية، بعد الإمام علي، ولكن يبقى الصيام الأهم عند العلوية الأناضولية هو صون اللسان واليد والعفة عن الشرور.

الحج:

هناك من يحج من العلوية، ولكن غالبية العلوية الأناضولية تقول بقول حاجي بكتاش ولي: "الله، ليس في القدس ومكة فقط فهو في كل مكان"، ويلخّص الحلاج فريضة الحج بقوله:

يطــوف بالبيت قوم لا بجارحة   بالله طافــوا فأغناهــم عــن الحــرم
للناس حج ولي حج إلى سكني   تُهدى الأضاحي وأهدي مهجتي ودمي

وليونس أمره ما معناه بتصرف عن التركية:

وأي الأرض تخلو منك حتى   راحوا القدس والبيت العتيق
يحــج إليــك عقلي بالمحبة   لحاظ الدهر يا أقرب صديق

أما عن الزكاة فهي عند العلوية الأناضولية فعل الخير مع اليتيم والأرملة والمسكين والغريب وكل محتاج.

العلوية والشريعة:

تعتقد العلوية الأناضولية والغالبية العظمى من باقي العلوية بأن الوحي مستمر في الكون، وبأن ظاهر الشريعة يبدو متطرفا وعنصريًا، وبأن الدين ليس نصوصًا جامدة، بل مقاصد عليا تُدرك بالعقل وتخضع لنسبية الزمان والمكان، بحيث لا تتعارض مع كرامة الإنسان بأي شكل كان.

ومن جهة أخرى لا يعقل أن يُفاضل الله بين الناس، حتى ليبدو في الشرائع عنصريًا، فالناس عند الله متساوون تمامًا بغض النظر عن انتمائهم وعرقهم ولونهم وعقيدتهم، ولذا على العلوي محاربة التعصب بكل أشكاله العنصرية والطائفية، وعليه الدفاع عن العدالة والمساواة بين جميع الناس ذكورًا وإناثًا.

وهكذا لا نجد أي مساحة للشريعة الإسلامية بشكلها التقليدي في العلوية الأناضولية، لأنه من غير المعقول أن تعزر الإنسان وتة ع أطرافه ورقبته وترجمه، في الوقت الذي هو صورة الله على الأرض ودليل قدرته وجماله وهيكل مسكنه، والله عند العلوية ليس الموصوف العصي على الإدراك البعيد القصي حتى ليبدو وكأنه العدم، بل يتجلى للكون بظهورات إلهية كقول الحلاج:

سبحان من أظهر ناسوته   سرّ سنا لاهوته الثاقب

ثـم بـدا لخلقـه ظاهرًا في صورة الآكل الشارب

حتـى لقـد عاينه خلقه كلحظة الحاجب بالحاجب

المرأة والعلوية الأناضولية:

يتساوى في التعاليم العلوية الرجل والمرأة، الصبي والصبية، الطفل والطفلة، مساواة تامة، وعلى كل الأصعدة الدينية والدنيوية، بما فيها الإرث والشهادة. ويعتقد بعض العلوية بأن موقع المرأة في الأسرة والمجتمع قد يفوق قليلاً موقع الرجل (قول الرسول لعمر "دعوهن إنهن خير منكم")، ولموقع فاطمة الزهراء الفريد بالنسبة للإمام عليٍ ومريم العذراء عند الله.

وتحرّم العلوية الأناضولية تعدد الزوجات، والطلاق التعسفي، وللمرأة حرية اختيار الزوج والمهنة، ولا يُفرض على المرأة أي نوع من أنواع الحجاب أو غطاء الرأس، حتى أثناء مشاركتها بالصلاة، وتولي العلوية الأناضولية أهمية خاصة لتربية البنات (إلزامية تعليمهن)، لقول بكتاش ولي: "علموا بناتكم"، ولا تفرق في التربية بين الذكور والإناث بأية حال.

التعاليم العلوية:

تتشكّل العلوية الأناضولية كما رأينا من تعاليم دينية وصوفية وفلسفة وثقافة وفنون وسلوك في آن، وهي غير نهائية بل قابلة

للتطور فيما يصب في إنسانية الإنسان وكرامته، والعلوي الحق هو من يحمل (الله – محمد – علي) في قلبه مع الإيمان المطلق بعدالة الإمام، ومحبة الإنسان، ولأنه يشكّل الأساس الذي لا غنى عنه في أي حوار إنساني، يقول حاجي بكتاش: "لا تردَّ الإهانة لمن أهانك، إنه إنسان مثلك يسكنه الله".

يرفض العلوية مبدأ التسامح بين الديانات أو القوميات لأنه مبدأ تطرحه عادة الأغلبية القومية أو الدينية، وكأن ضعف هذه الأقليات يشكّل سببًا كافيًا لأن تكون مخطئة وليتسامح معها الطرف القوي، ويحمل هذا المبدأ الكثير من الخطورة، لأن التسامح المهين للأقليات قد ينتهي في أي وقت أو ظرف، لتحلَّ مكانه مجازر، وقد حدث هذا مرات عديدة في التاريخ، أما عن التسامح الشخصي حيث يسامح الإنسان من يُخطئ تجاهه، فتعتبرها العلوية فضيلة.

والعلوي ملزم باحترام كل الديانات والعقائد والمذاهب بشكل فعلي وليس بالقول فقط، وعدم إيذاء الغير جسديًا أو معنويًا، والبعد عن النميمة والكذب والسرقة والزنا وزواج المحارم.

هناك مقامات أربعة ولكل مقام عشرة أركان، وعندما يلتزم طالب العلم بهذا المقام قولاً وفعلاً ينتقل للثاني، وأول مقام هو مقام الشريعة وأركانه العشرة مثل: الإيمان، العلم، الحفاظ على الشعائر (صوم، صلاة...)، بر، إحسان، احترام المرأة...

ثم ينتقل إلى مقام الطريقة، وأركانها العشرة، ومنها: معرفة معنى الإيمان، احترام وطاعة العالم (للوصول إلى مقام الطريقة لا بد من بير)، وهنا يتم ربط المعارف المتعلمة بعضها ببعض، ومن أركانه أن تكون مؤدبًا قنوعًا، صاحب ضمير حي، وتعرف نفسك.

أما مقام الحقيقة فمن أركانه معرفة أسرار الطريقة، أهمية الحياة وهدفها، معرفة أسرار الكون، التواضع، احترام الإنسان وكرامته..

الأعياد العلوية:

يحتفل العلوية ككل الطوائف الإسلامية بعيد الفطر وعيد النحر (الأضحى)، ويشاركون مع الشيعة في عاشوراء، وعيد الفراش (مبيت الإمام علي في فراش الرسول ليلة الهجرة)، وعيد المباهلة، وعيد النيروز. وتحتفل العلوية أيضًا كغالبية الطرق الصوفية بعيد ميلاد السيد المسيح، وعيد المهرجان، وللعلوية أعيادها الخاصة بها مثل النصف من شعبان (عيد التجلي الأعظم).

وللعلوية الأناضولية مناسباتها وأعيادها مضافة لما سبق، مثل ذكرى عبدال موسى أو ذكرى الشهيد سلطان عبدال، أو مذبحة اسطنبول، أو مذبحة دير سيم العام ١٩٣٠، حيث شارك الأكراد السنة الأتراك السنة في قمع الثورة العلوية، ذكرى حاجي بكتاش ولي، وعيد الخضر إلياس. وتشارك العلوية جيرانها من طوائف

وديانات أخرى احتفالاتها، ولكن هناك من يريد أن يكون الآخر نسخة طبق الأصل عنه، وإلا فهو مُعرَّض للأقاويل والإشاعات المغرضة، بحيث يصبح عدوًا، وفتاوى ابن تيمية وأمثاله جاهزة للنيل منهم ومن غيرهم من المذاهب.

كما أن الصوفية لا يُشركون في حلقات الذكر أحدًا من خارج الطريقة، كذلك العلوية، الأسباب الحقيقية هي خوفا من القتل والتكفير وليس دينيًا، ولكن هذا يصبح سببًا للتقوّل البشع غير المستند للواقع والمنطق والعقل، وهناك من يتهم العلوية بعبادة الشمس والقمر، ولا يريد أن يفهم أن هذين الجرمين جزء من الطبيعة، والتي هي مع الله والإنسان تشكّل وحدة الوجود، وهما في النهاية آيتان إلهيتان، ويُحمل كل هذا على الآخر.

ولنقرأ النابلسي العلامة الصوفي يقول:

أردت ظهوري لي وما كنت خافيًا فطورت في الأطوار من كل صورة
وطورت أملاكي فلي كنت عابدًا وطورت أفلاكي فدارت بقدرتي
وفي كل أطوار الشياطين بينكم ظهرت بوسواس لأصحاب شقوةِ
وأسجدت أملاكي بأمري لمظهري فكان سجودي لي وآدم قبلتي
وأظهرت من صلبي جميع مظاهري بصورة ذرٍّ للعهود الوثيقةِ

(ما يقوله المسيحيون عن المسيح: "مولود غير مخلوق قبل كل الدهور").

من (الإمامة الكبرى) و(قانون الإيمان):

وأشهدتهم عني ألست بربكم فقالوا: بلى طرًا بنفس مطيعةِ
وأول أطواري الكوامن أنني لآدم شيئًا كنت وهو عطيتي
ومن بعد هذا جئت في طور كل ما مضى من رسول أو نبي لأمةِ
وأصبحت في شكل النبي محمد إلى الله أدعو الناس في أرض مكةِ
ومن بعد ذا ما زلت أظهر دائمًا على أمد الأزمان في كل هيئةِ
وكل الذي أبديته لك ناظمًا فمن فوق أطوار العقول السليمةِ

إذا كان هذا فوق أطوار العقول السليمة فما حال عقول الجهلة، ولذلك لا يبوح من عنده سر لمن لا يفهم مقصوده، ولذا قال الإمام علي: "خاطبوا الناس على قدر عقولهم"، وإلا فماذا سنقول بما قاله النابلسي في الجزء الثاني من ديوانه:

كم غادة كاملة في حسنها لو يدرك البدر سناها لاختبل
لبستها ثوب حرير ناعم بكرًا وزَرَرّت عليها بالقبل
ولي فؤاد بالحسان مغرم يدكه محبوبه دك الجبل

يشير للآية: "فلما تجلى ربه للجبل جعله دكًا وخر موسى صعقًا"

واللات والعزى ظهوران له بما وراهما وما ورا هبل

ماذا نقول في هذا الشيخ وإيمانه وتوحيده، إن لم يؤخذ هذا القول على الرمز الصوفي.

وسأصل مع القارئ إلى الشمس والقمر وغيرهما، إذا ما تابعنا الشيخ النابلسي قليلاً حيث يقول:

هو المعروف والمجهول والمخفي والبادي
هو الشمس التي لاحت وبدر الأفق في النادي
هو المغوي والغاوي هو المهدي والهادي
هو المدعو بأحساب وأنساب وأجداد
وأعمام وأخوال وآباء وأولاد
ثياب كلها يبدو بها من خلق أضداد

ومع كل هذا الشطح الظاهر، هناك من يقول إن هذا العلأمة الصوفي العارف يعبد الشمس والقمر؟ أو يعبد الشيطان؟ أو يعبد والدًا مولودًا؟ أو من يقول دينه على الحقيقة إن لم يكن من أهل الإيمان والإحسان.

يقول الشاعر القديس يونس أمره:

أحب الخلق كرامة الخالق روحي صديقي الحبيب، إلهي الجميل

فمحبة الله الحقيقية هي المبنية على كامل الحرية والإرادة، ومبدأ الثواب والعقاب يسلبهما، ولا يصل بالإنسان إلى مقام المحبة المجردة، وهذا المبدأ يصبح للمرتزقة طمعًا بجنة، أو خوفًا من عذاب النار. فعلاقة العلوية بالله هي علاقة محبة خالصة، فالعقاب

للجاهل المتجاهل غير العارف هو البعد، والثواب لذوي العقول العارفة الباحثة دومًا عن الحقيقة هو القرب، وبالعلم والمعرفة يقترب الإنسان أو يبتعد عن الله وذلك بحريته وإرادته المطلقة.

فالله ليس البعيد المجهول غير المدرك الغاضب المهدد والباعث على الخوف والرهبة، بل هو الحب والخير والجمال، وقوى الخالق المقدسة "العقل" تسكن كل إنسان لنعرفه بها ونعرف إرادته وقدرته، وعند العلوية الأناضولية محمد وعلي وأولاده وأحفاده الأئمة والأولياء هم الدليل والطريق إلى هذه القوى المقدّسة، والتي يتحد بها معهم ومع الخالق، ولذا فالإنسان هو الأكمل والأجمل في هذا الكون. وها هو يونس أمره يصرح بحقيقة الإنسان:

أنا الباطن والظاهر	أنا الماضي والحاضر
هـو يا أنت يا إني	دليل الحق يا فاطـر

فالجسم يفسد والروح برق تسكن في أجسام كثيرة، وتتوج بإنسانيتها لتتشبه بكمال الله وتتحد معه بالعقل، هذا الاتحاد هو هدف الإنسان، وحتى يصل الإنسان إلى هدفه تقدم التعاليم العلوية للإنسان خلال سيرته في حياته وعلاقته بالله بالإنسان والطبيعة العون للوصول إلى ذلك.

النصيرية

النصيرية أو العلوية النصيرية، كما يسمون في تركيا، يطرحون أنفسهم على أنهم فرقة علوية مثل البكتاشية، ليس هناك عن النصيريين في تركيا، حتى العام ١٩٩٥، كتاب خاص يتناول مذهبهم وأفكارهم وشعائرهم التي يقدسونها غير أن معظم النصيرية كبقية العلويين اعتادوا اعتبار أنفسهم منذ العام ١٩٧٠ جزءًا من الجبهة اليسارية في تركيا، يحتفل النصيريون بعيد الغدير، الذي لا يحتفل به أي من الفرق العلوية والإسلامية، مما أدى إلى سريان العديد من الأقاويل والإشاعات ضدهم، فقام أحد كُتّاب النصيرية بتأليف كراس العام ١٩٧٥ للرد على تلك المزاعم، واعتبارًا من العام ١٩٨٠ قام النصيرية، مثل بقية العلوية، بتنظيم أنفسهم في نواد وجمعيات مختلفة، وانتخاب الشيوخ لزعامتهم، وهؤلاء بدورهم قاموا بالعديد من التصريحات والمقابلات مع الصحف حول مذهبهم، وكان على رأس الكُتّاب الذين قاموا بدراسة العلوية والبكتاشية والنصيرية الطبيبُ عمر أولوجاي من أضنه. وعندما تولى الشيخ يوسف أسير قيادة النصيرية في مرسين، قام

مع المشايخ شرف الدين سرين ومحمود ريحاني ومحمود نديم بتأليف الكتب حول هذا المذهب بعد العام ١٩٩٠.

يستطيع من يريد دراسة النصيرية العودة إلى الكتب التي صدرت خلال المرحلة بين القرن التاسع والقرن العشرين وأهمها مؤلفات النميري، الذي توفي في العام ٨٨٣م، وأبو عبد الله حسين بن حمدان الخصيبي الذي توفي في العام ٩٥٧م، وعلي ابن عيسى الجسري الذي توفي في القرن العاشر الميلادي، وأبو سعيد ميمون ابن قاسم الطبراني الذي توفي في العام ١٠٣٤م، والأمير حسن ابن مكزون السنجاري الغساني الذي توفي في العام ١٢٤٨م، وإبراهيم الطوسي الذي توفي في العام ١٣٤٩م، وحسن العجروي العيني الذي توفي في العام ١٤٣٢م، ومحمود ابن يونس كيلاز الذي توفي في العام ١٦٠٢م، وحسين الأحمد حمّين الذي توفي في العام ١٨٧٨م.

ويذكر عبد الرحمن البدوي أكثر من ٥٠ كتابًا ومُؤلَّفًا حول النصيرية حتى نهاية القرن التاسع عشر، ولكن المكتبة الوطنية الفرنسية تضم اليوم أكثر من ١٢٠ كتابًا حول هذا الموضوع.

وكبقية الفرق العلوية، أصبحت هناك الكثير من المؤلَّفات والكتب التي تتحدث عنهم وعن مذهبهم بأقلام مثقفيهم بعد أن خرجوا إلى العلن ككل الفرق العلوية اعتبارًا من العام ١٩٩٥، حيث نجد

السبب في السرية المضروبة على مذهبهم متأتية من الضغوط السنية الهائلة والخوف والإقصاء.

وبسبب السرية والتباعد، تطورت النصيرية بعيدًا عن تطور غيرها من الفرق العلوية الأناضولية، ولذا نجد اختلافات مثلاً بينها وبين البكتاشية، لكنها لا تصل إلى حد التنافر، بل يبقى الانسجام مُسيطرًا على العلاقات، لما تحمله الفرق العلوية عامة من نظرة قبول الآخر المختلف.

ورغم التباين من الناحيتين التاريخية والثقافية بين الفرق العلوية يبقى الإيمان بالإمام علي وبآل البيت يجمعها كلها على صعيد واحد، وتبقى الاتهامات الموجهة لكل الفرق العلوية من السنة والشيعة هي واحدة.

يبتعد العلوية عامة والنصيرية منهم عن الشيعة بقدر بعدهم عن السنة، وهم ينظرون إلى المذهبين الإسلاميين الكبيرين على أنهما متطرفان دينيًا، ويأخذون بالمذهب الجعفري (جعفر الصادق) ولكن بتأويل مختلف عن الشيعة، يعتبر النصيرية أنفسهم كالأنصار في المدينة بالنسبة للنبي محمد.

لا يصلي العلويون بما فيهم النصيريون في تركيا في المساجد لأسباب عديدة أهمها: أنه غير مذكور في القرآن كيف تقام الصلاة، ولا يأخذون بالأحاديث السنية خاصة، كما أن أئمة

المساجد تاريخيًا كانوا يقومون عادة بمدح معاوية وشتم الإمام علي، ولذلك هم يقيمون صلواتهم الخاصة بهم في بيوت الجمع البديلة عن المساجد، وتسمى أيضًا الزيارة، ولا يُشترط في أماكن الزيارة سوى أن تكون طاهرة، ويمكن أن تقام في أي مكان.

يقدَّر عدد النصيرية اليوم في تركيا بأكثر من مليون نسمة، قدَّم بهاء سعيد أول دراسة في تركيا نشرت العام ١٩٢٧ عن العقيدة العلوية النصيرية وشروحاتها تذكر رموز العلوية ومقدساتهم مثل:

- الأنوار المحمدية الخمسة المتابلة لفكرة أهل العبا (محمد، وعلي، وفاطمة، والحسن، والحسين) المعروفة بقصة المباهلة المشهورة، في حين أن الخمسة النورانية هم (محمد فاطر، الحسن، الحسين، محسن، السر الخفي – وهو الذي أسقطته فاطمة بعد أن ضربها عمر بن الخطاب على بطنها حسب بعض المصادر الإسلامية وخاصة الشيعية منها.
- الأيتام الخمسة، أبو ذر الغفاري، والمقداد أبو الأسود الكندي، وعبد الله بن رواق الأنصاري، وعثمان بن مضعون النجاشي، قنبر بن قادان الدوسي، الذين يعدون خدمة الإمام علي المخصوصين وموضع سره.
- الكواكب الدرية السبعة وهم: الرسول محمد، وسلمان، الأيتام الخمسة، ترمز للسماوات السبع، الطباق السبع، والكواكب السبعة

السيَّارة. وهكذا وصولاً إلى: الاثنى عشر سطر الإمامية، وهو رمز لا يستطيع تفسيره أحد سوى المرشد (البير لطالب العلم الجديد الداخل إلى البيت الحرام) (الطريقة العلوية النصيرية وتعاليمها وحقائقها).

في دراستنا للعلوية الأناضولية بما فيها النصيرية ولنستطيع التوصل إلى فهمها وبالتالي حبها علينا أن نأخذها كما نأخذ الصوفية، بوجدهم وسكرهم وشطحاتهم في الحب الإلهي؛ الظاهر والصريح، والسر المرموز وما وراءه من مقاصد معمَّاة مستورة، أو مباحة مكشوفة.

فسح الخصيبي المجال للاعتقاد بتأليه الإمام علي لما أبداه من الحب المفرط والإعجاب غير المحدود بالإمام وعدالته حيث يقول عنه: "وله في قرآن ابن مسعود ثلاثمائة اسم" ويُبدي العلوية مثل هذا الحب للإمام علي الذي أصبح ضربًا من ضروب العبادة.

ولو قارنا الفكر والتعاليم والإيمان العلوي لوجدناها تتماهى مع الفكر والتعاليم والإيمان لدى غالبية المدارس الصوفية، وتماثلها في معانيها الذوقية الصريحة والمرموزة القابلة لتأويل الموافق والمخالف.

إن خطأ الكثيرين ممن تكلموا عن مختلف طرق التصوف الإسلامي ناتج عن سوء فهم للتصوف، بحسبانهم إياه مجرد معرفة نظرية

كالتاريخ والجغرافيا، وبالحقيقة لا تتيسَّر معرفة الصوفية إلا بالمعاناة الفعلية والاسترشاد بالصوفي الصادق المتمرس بالرياضة العملية الضرورية لحصول (الحال) لديه، مثله في هذا الشأن مثل الطبابة والهندسة، فهذه العلوم لا يمكن معرفتها إلا بمعاناة طويلة على أيدي خبراء سبق لهم أن مارسوها سلوكًا وتجاربًا، أكسبتهم الخبرة الصحيحة والقدرة الضرورية للإرشاد والتعليم وتصحيح الأخطاء التي لا مندوحة من الوقوع بها خلال مراحل الدراسة (الطلب) وربما بعد ذلك.

والفارق في ارتكاب الأخطاء خلال مزاولة هذه الحرف (الأعمال) هو في كون الضرر الحاصل من تلك الأخطاء في تلك العلوم هو حسي واضح معروف النتائج، أما الخطأ في فهم التصوف وفي تعريفه للآخرين فهو معنوي خفي، لا يلمس أضراره البالغة قبل وقوعها إلا القلة من أهل العلم، وتذهب أضراره أحيانًا بعباقرة من الأفراد أو بجماعات بريئة، ويتعاقب أذاه أجيالاً وأجيالاً ويعسر التعويض عنها، فلا سبيل إلى تكوين رؤية واضحة ومعرفة صحيحة للتصوف وفهم أسراره وحل أحاجيه إلا عن طريق السلوك الطويل بصحبة المرشد، ومعاناة ما عاناه من رياضات بدنية وروحية، هي الشرط الأساسي لاجتياز مراحل الطلب في المعرفة العلمية لأسراره ولفهم تعابيره (الذوقية).

التصوف هو المحاكاة الواعية والاقتفاء العملي لسلوك سقراط، وزينون، المسيح، محمد، علي، الحسين، الحلاج، والسهروردي، وابن عربي، والجنبلاني، ونسيمي، ويونس أمره، وبكتاش ولي. ابتداء من الاستعداد الفطري لدى طالب المعرفة إلى كيفية المرور في مراحل الحياة، طفولة وشبابًا وكهولة، إلى التأمل الواعي في أوقات الصفاء، إلى ممارسة عملية لفضائل الأخلاق في التعامل مع المجتمع الضيق (العائلة) والواسع (المجتمع)، إلى التزام المحبة الشاملة لإنسانية الإنسان حتى في شخصية المناوئين، إلى الاستسلام الكامل للمقاصد الإلهية، إلى الزهد في مغريات الحياة، وكل هذا يسمى الإيمان والإحسان أو التصوف[1].

علينا التفريق بين التصوف لأنه فعل (والصوفي لا يعتاش إلاَّ من تعب يديه وعمله طيلة حياته قدوة بالإمام علي) وبين الدروشة العاطلة واللافاعلة.

يقول مشايخ الصوفية مثل قول حاجي بكتاش، بأن ظاهر الكون يخفي أسرارًا قد تخالف هذا الظاهر، بل وقد تلغي حقيقة الظاهر المعتمد على الحواس، وبالعقل فقط نستطيع فهم أسرار الكون، والمقاصد العليا للدين لا تتعارض مع مقاصد الكون والحياة، فالدين يجب أن يخضع لمقاصد الكون والحياة العليا.

---

[1]- العلويون، عبد الرحمن الخير.

فإذا درسنا الخصيبي وصولاً إلى بكتاش ولي ومشايخ العلوية انطلاقًا مما ذكرنا نستطيع فهم هذه العقيدة ومقاصدها العليا، دون إدانة مسبقة لها، أو إطلاق الشكوك والإشاعات والأقاويل عليها دون معرفتها وفهمها.

قاد العلوية بعد الخصيبي (واضع كتاب الهداية الكبرى) في بغداد، المركز الأول السيد علي بن سعيد الجسري، وفي المركز الثاني في حلب، وهو الأهم، السيد محمد بن علي الجلّي. وبعد السيد الجلّي، انتقل مركز حلب إلى اللاذقية حيث رأسه الشيخ أبو سعيد الميمون سرور بن القاسم الطبراني (٣٥٨ – ٤٢٦ هـ)، المولود في طبريا (حيث يقطن بعض قراها العلوية حتى الآن ومنها قرية شبعا)، وله الكتاب الشهير مجموع الأعياد.

وبسبب الأحداث السياسية العسكرية التي عصفت بالمنطقة، أصبح لكل جهة مركز روحي، وأسس الشيخ محمد بن الحسن المنتجب العاني (ولد في العراق وتوفي في سوريا) طريقة عرفانية، وكان مفكرًا وشاعرًا ساهم في إغناء الفكر العلوي. وأخر المفكرين الكبار كان الأمير المكزون السنجاري الغساني، الذي رأس الطائفة وترك تأثيره الملحوظ فيها (١١٨٧ – ١٢٤٠ ميلادي).

بعد السنجاري، خلت الساحة من مفكرين كبار ومبدعين، ودخلت البلاد في اضطرابات دموية وموات اقتصادي، وعمَّ الفقر والظلم

في المنطقة، وفي هذا الوقت الذي دخل فيه العلوية جنوبًا في سبات فكري واقتصادي، بزغ نجم علوي نادر المثال استطاع ليس فقط نشر العلوية، بل غذى المنطقة والعالم بفكر إنساني ندر مثيله في كل ديانات الغرب والشرق على السواء.

هذا النجم الساطع هو حاجي بكتاش ولي، الذي استقرَّ في الأناضول لينشر الضوء والورود في أنحائها في الوقت الذي كانت فيها العلوية تتعرض جنوبًا إلى كل أنواع المعاناة الإنسانية، بعد فترة الحماية التي وفرها الحمدانيون للعلوية (٩٢٩ – ١٠٠٣) الذين حملوا راية الدفاع معهم أمام الهجمات البيزنطية. بسط الحمدانيون القادمون من الموصل نفوذهم حتى الساحل المتوسطي وأصبحت حلب قاعدتهم، ووصل نفوذهم لدمشق وجبال لبنان وجبل اللكام بين أنطاكية وطرابلس.

وبعد انتهاء الغزو الصليبي للمنطقة، وابتداء من منتصف القرن الثالث عشر، قام السلطانان المملوكيان بيبرس وقلاوون اللذان احتلا القلاع والحصون الصليبية في جبال اللكام، بتغطية المنطقة العلوية أصلاً بالجوامع، وحاولا إدخال المذهب السني بالقوة، وقتلا عشرات الآلاف من العلوية، كما وجَّه السلطان المملوكي الناصر يرافقه المحرِّض الكبير والداعية للجهاد ابن تيمية حملة ضد علويي كسروان، فأبادهم العام ١٣٠٧ في موقعة عين صوفر. وتُعد فتوى ابن تيمية أعنف عريضة اتهام توجه للجنس البشري،

وجاء فيها مما يخص العلوية "إنهم أكفر من اليهود والنصارى، بل أكفر من كثيرين من المشركين، وضررهم على أمة محمد أعظم من ضرر الكفار المحاربين مثل كفار الترك والإفرنج وغيرهم، والله يؤدي الجهاد المقدس ضدهم".

ولم يكن موقف المماليك إجمالاً من الأقليات الدينية أفضل من موقف ابن تيمية. فاعتبارًا من العام ١٢٥٨ وحتى احتلال الأتراك العثمانيين للمنطقة العام ١٥١٦، اجتاح هؤلاء بلاد العلويين لمرات متتالية، وقتلوا آلاف القرويين، وكان العلويون يخيرون أحيانًا بين القتل أو اعتناق المذهب السني، فاختار البعض الحل الثاني، ولجأ الكثيرون إلى التقية.

في العام ١٥١٦، اجتاح السلطان سليم المنطقة ودخل حلب التي كانت ذلك الحين ليس فقط مركز العلوية الأول بل تضم أكبر تجمع سكاني علوي في الشرق، وكان العلوية غالبية سكانها، وكما فعل صلاح الدين بعلوية مصر حيث أبادهم (خمسون ألف)، أباد السلطان سليم علوية حلب، بحيث فاق عدد قتلاهم الخمسين ألف، وتشتت الباقون، وتقول حكاية علوية (نصيرية) عن عدم السماح للنساء بالمشاركة في الصلاة منذ ذلك الحين، أنه اختبأ بعض المشايخ العلوية مع من استطاع الإفلات من المجزرة في مكان دلت عليه امرأة علوية متزوجة من سني، فقتل نحو تسعة آلاف منهم ولم تقبل استجارتهم بينما تقبل استجارة الكفار، وذلك بفتوى

سابقة لابن تيمية، وفتوى لاحقة لشيخ الإسلام مرافق السلطان سليم (تحالف المفتي والسلطان الدائم والأبدي). وهكذا، تشتت العلوية في شواهق الجبال والمناطق العصية، ونزلوا بإيمانهم تحت الأرض، وعانوا من الفقر والجهل والاستغلال والتخلف، لابتعادهم عن غيرهم خوفًا من الأذى الذي لحقهم منه الشيء الكثير، حيث كانت تنتظم ضدهم وباستمرار حملات قتل وهدم ومصادرة.

تعد النصيرية القرآن أساسًا في مذهبها، وإن كان لها اجتهادها الخاص بتأويله كبقية الفرق العلوية، كما تختلف عن العلوية الأناضولية من حيث موقع المرأة ومساواتها، ففي الوقت الذي تشارك المرأة العلوية الأناضولية في أداء الشعائر الدينية، تبقى المشاركة في الصلاة وقفًا على الرجال عند النصيرية، ولا يقدم النصيرية خلال شعائرهم ما يسمى بالخدمات الاثني عشر، كناية عن الأئمة الاثني عشر المعصومين، والتي لا بد من تقديمها في الطريقة البكتاشية مثل الحاجب (الفرّاش) الساقي، الحلاق وهكذا. ولكل من هذه المهن علاقة رمزية بمحمد وعلي وسلمان ونقاباته، ولا يعتمدون آلة الساز ورقص السماح في شعائرهم كالبكتاشية. يلقب النصيرية قائدهم الديني بالشيخ وأرفع رتبة هي المرشد، في حين يسمى في الأناضول بـ (دَه دَه) أي الجد أو الشيخ، ويستعملون أحيانًا أسمي البابا أو الشيخ. ومثلاً، الحاج بكتاش

يلقب بالبير حاج بكتاش أي شيخ بالفارسية، وإذا كانت العلوية الأناضولية متأثرة بالشامانية والمسيحية والزرادشتية وتتمركز في بكتاش ولي كتجسيد لميثولوجية العلوية الأناضولية، فإن الإمام علي يُشكل عند النصيرية هذا المركز مع تأثيرات واضحة للديانات السورية: بعل، أدونيس، عشتار، المسيح مريم، الخضر إلياس (مار جرجس).

إذا انطلقنا من أن العلوية الأناضولية هي فرقة أو مذهبًا إسلاميًا إلاّ أنها وبلا شك تطرح إسلامًا آخر مختلف عن الإسلام التقليدي بشقيه السني والشيعي وفي النص التالي سأقدم هذا الإسلام الآخر كنموذج لديانات الشرق الإنسانية الملبية حاجات الإنسان الروحية بعيدًا عن السلطة والتسلط الديني وذلك لمواكبة التقدم الإنساني العلمي والمعرفي. الإسلام الآخر الذي يجعل الإنسان قيمة القيم لبعده عن التمييز والعنصرية ولإيمانه الراسخ بالأخوة والمساواة الإنسانية بالمطلق على عكس ما يبشر به الإسلام التقليدي السني والشيعي.

الإسلام الآخر

أقسم البعض بأنهم لم يروا الشيخ بدر الدين غاضبًا ولو لمرة واحدة في حياتهم، وردًا على هؤلاء أقسم آخرون أنهم رأوه غاضبًا، واختلفوا في سبب غضبه، البعض قال بسبب تسخير الناس للعمل عند السلطة ورجالاتها وترك عائلاتهم تتضور جوعًا، البعض قال بل بسبب مصادرة الأراضي والمواشي والأموال، البعض قال بسبب الفتاوى التي تُكفّر بعض الجماعات حيث قتل ستون ألف بفتوى من شيخ الإسلام، ولكن الجميع قالوا إن الأرض زلزلت عندما غضب الشيخ بدر الدين، وهدرت أمواج البحر، وجرت السيول، وجرفت معسكرًا لجيش السلطان، وفاضت الأنهر، وغطت الثلوج الجبال والسهول وشوارع المدن، وغابت الشمس أيامًا لا تحصى، وأصر الآخرون على أنه لم يغضب بل كان يضحك، وبأن الزهور غطت الحقول، والأشجار أثمرت، والطيور غردت، والماشية ولدت، والخير عمَّ. ولكن الحقيقة أن الشيخ بدر الدين غضب، وكان الفصل شتاء، والثلوج تتساقط، والرياح الباردة القاسية تصفع الوجوه.

فصلب الشيخ على شجرة في الساحة العامة للمدينة، وأفتى المفتون وبطلب شخصي من السلطان بشنقه ليكون عبرة لكل غاضب هو والعشرة آلاف الذين غضبوا لغضبه، والذين، وبطلب شخصي من السلطان، أفتى المفتون بقتلهم بحد السيف. كان يؤتى بهم مكبلين، فيتطلعون إلى الشيخ طالبين بركته، وكان الشيخ يتمتم: "أيها الشاه يا ملك الملوك أعضدهم".

وبعد أن شاهد الشيخ بدر الدين مقتل أصحابه؛ فقراء العلوية والأرمن من الأناضول، يونان ويهود من السواحل، بل وأئمة مساجد ورهبان أديرة كانوا أيضًا من مريدي الشيخ بدر الدين محمود، وعلى نفس الشجرة التي صُلِب عليها في ساحة المدينة، شنق الشيخ. وبعد أن هدأ جسمه العاري النحيل ولحيته الشقراء عن الحركة، ساد سكون لم يعهده أحد، لم تصح الديكة، ولا غرد طير، ولا نبح كلب، حتى الأنهر، قال شهود إنها توقفت عن التدفق وسكنت مياهها وهدأت الأمواج فصار سطح البحر كالمرآة. وأقسم آلاف الناس بل عشرات الآلاف بأنهم رأوه يغادر المدينة حيًا يرزق على صهوة جواده الأشقر إلى جهة لا يعرفونها، مؤكدين بأنه سيعود. آخرون قالوا بل كان حصانه أبيض، والعديد العديد من الرجال قالوا بل مات ولكنه ولد عندنا من جديد. قال رجل: ولدته امرأتي، ونساء هؤلاء الرجال كنّ يشهدن على صحة ذلك الأمر،

وكن يرفعن أطفالهن فوق الرؤوس مبرهنات على صدق كلامهن وليرى العامة بأم العين فلا يكونوا غير مصدقين.

ولد الشيخ بدر الدين العام ١٣٦٥، وصُلِب ثم شنق العام ١٤٢٠. أما لماذا صُلِب ثم شُنق فهنا يختلف الناس، كما اختلفوا حول قتل الحلاج الذي قطعت يداه ورجلاه ثم صلب ثم قطع رأسه ثم أحرق، فمنهم من قال من أجل كلمة قالها: أنا الحق، أو من أجل بيت أو بيتين من الشعر، قال هذا مؤيدوه، أما السلطة فقالت إنما أراد الانقلاب على الدولة، أما رجال الدين قضاة ومفتين فقالوا إنه كفر.

الشيخ بدر الدين صُلب ثم شنق فلم تقطع يداه ورجلاه ولا رأسه ولم يحرق، أما لماذا صلب وشنق، فمنهم من قال لقد كان مستقيمًا ولم يستطع السكوت عن قول الحق، ومنهم من قال إنه اتهم السلطة بالظلم، أما السلطة فقالت إنه ثار ضد السلطان، وصادق رجال الدين على قتله وتكفيره وقتل كل من صدقه وتبع أفكاره وتكفيرهم. وذلك ما جرى للشاعر القديس نسيمي، لقد تم سلخه حيًا من أجل كلمة، وما جرى للسهروردي المقتول بأمر من صلاح الدين لفلسفته، لم يقل أحد إنه حاول الانقلاب على الدولة، ولكن الكل أجمع على أنه قُتِل من أجل فلسفته، وغير هؤلاء قتل الكثير، ممن قتل صلبًا أو شنقًا أو سلخًا أو حرقًا بتهمة نقد الدولة وظلمها وهذه هي الخيانة أو الكفر، السلطان العثماني محمد الأول شخصيًا أمر بصلب الشيخ وشنقه، كثيرون قالوا هذا شرف كبير للشيخ.

وكما حوربت أفكار الحلاج وكتبه، حوربت أفكار الشيخ بدر الدين وأحرقت كتبه وعتمت الدولة بالحديد والنار على فكره وفلسفته وما قال وما فعل حتى يمحى ذكره من التاريخ، ولكن الغريب أن هناك آلافا مؤلفة ممن يعتنقون أفكار الشيخ بدر الدين ويقدسونها كتقديس الآخرين كتبهم السماوية، وهؤلاء لا يزالون يتحدثون عن كرامات الشيخ وقيمه وما قال وفعل، ولكن الشاعر التركي العظيم ناظم حكمت خلد هذا الشيخ الجليل والمصلح الاجتماعي الكبير بملحمته الشعرية الخالدة "الشيخ بدر الدين السماوناني".

ينحدر الشيخ من عائلة مرموقة، فوالده إسماعيل محمود رافق السلطان مراد في حملته على اليونان، فعينه السلطان قاضيًا على سيماونه، ومن الطبيعي أن يحفظ الطفل بدر الدين القرآن عن ظهر قلب، وكان زميلاً لموسى شلبي أثناء الدراسة على يد قاضي العسكر أي مفتي الجيش العثماني، ثم سافر إلى عاصمة السلاجقة التاريخية قونيا عاصمة العلم في آسيا الصغرى آنذاك، فدرس على يد العالم فيض الله شتى العلوم ومنها الفلك، ثم أكمل دراساته العليا في الأزهر، وحج بعد ذلك ودرس في مكة على بعض مشايخها، وزار إيران والعتبات المقدسة في العراق، ثم عاد إلى القاهرة والتحق بإحدى الطرق الصوفية، وتزوج امرأته الحبشية هناك، وبعدها عاد ليتبوأ منصب مفتي جيش الأمير موسى، الذي

كان يحارب أخاه أحمد على ولاية العرش بعد أسر أبيهم السلطان بيازيد على يد تيمورلنك في معركة قرب أنقرة.

نفى الأمير أحمد الشيخ بدر الدين بعد أن هزم جيش أخيه الأمير موسى، وكانت في هذه الحروب تصادر الأراضي على نطاق واسع، وتقتطع لأمراء الجيش وضباطه، ويجنذ الفلاحون بالقوة لتغذية المعارك بالدماء، وكان الظلم يعم بلاد بني عثمان، فمن أجل النصر والوصول إلى الغايات أو العروش، كان يضحى بكل القيم. والأخلاق والدماء أيضًا، ثار على هذا الواقع مصطفى بوركلو أحد مريدي الشيخ بدر الدين، وأنضم إليه مريد آخر وهو كورلاك كمال، وهذا هو ما وضع الشيخ في دائرة الاتهام، وبعد إعدام الثائرين وآلاف آخرين معهم، قبض على الشيخ فصلب وشنق.

في كتابه "واردات" نقرأ فكر الشيخ بدر الدين وفلسفته النابعة من التصوف العلوي الأناضولي يقول: "إن الأرض والكون والمخلوقات جميعًا ما هي إلا صورة لمرآة الحقيقة الإلهية"، فما هو في الكتب السماوية، وما نقل من فم لفم عن الجنة وحورياتها ومياهها، عن الجحيم ووقودها وشياطينها، ما هما إلا تصورات وتخيلات لظاهر الكلام الذي لا يدل على المعنى الحقيقي والمراد الوصول إليه، ورموز الكلام وحقيقته أن الجنة هي كل ما هو خيِّر وجميل ومحبب في هذه الحياة، والجحيم هو كل ما هو سيء وشرير. فهذه الصورة في معرفة الله تتعارض مع الدوغما الكلاسيكية عن

الله في الإسلام. فالله بهذه الصورة ليس مسؤولاً عن الخيرات والشرور في الحياة والتي هي أفعال إنسانية بحتة في سياق التاريخ الكوني وقوانينه الإلهية فالله هو الوجود وخالقه، فالإنسان العاقل والجزء من الكون الموجود الخاضع لقوانينه الإلهية مسئول عن أفعاله بحريته المطلقة، أي أنه ليس مكتوبًا على الإنسان أفعاله أو أنه سيفعل ما هو مكتوب له، كما في ظاهر الشريعة وتأويلاتها.

وحسب الشيخ وفلسفته، الإنسان مسئول عن الشر أو الخير، عن الجمال أو القبح، ففيما عدا الإنسان لا توجد هذه المصطلحات في الكون والطبيعة، لأنها معايير إنسانية وليس كونية، والإرادة الإلهية لا تتعارض مع هذا القانون، بل توافقه، وإلا أصبح الإنسان غير مسئول عن أفعاله مثله مثل أي شيء في هذا الكون، الإرادة الإنسانية ليست هي أن تفعل أو لا تفعل بل الأسباب وراء هذا الفعل، ففعل الشيء ينبع من الضرورة لفعله، وهذا يخضع لظروف ذاتية وخارجية، فإذا كانت الظروف الموضوعية مواتية فلن يردَّ الإنسان عن تحقيق الفعل أيّ سبب.

حسب بدر الدين لا شيء غير الله وكل شيء عائد لله، الأحياء والأموات، والخير والشر والنور والظلمة، وما يرى وما لا يرى، المحسوس المادي، والروحي غير المحسوس، فحياة الإنسان، كما الحيوان، غير ممكنة خارج الجسم، والجميع من مصدر واحد

وإليه المعاد. وفي الحقيقة كل المخلوقات واحدة، فمن قال أنا الحق، قال الحقيقة، لإننا كلنا من الله، ومن غير الله لا شيء. يقول الشيخ: لا يمكن أن يكون الشعب سيئًا ولا خير فيه لأن المسؤولية سحبت منه، والسيئ والذي لا خير فيه هو ذلك الذي صادر إرادة الشعب ومسؤوليته ونصَّب نفسه وكيلاً على الشعب.

أفكار الشيخ بدر الدين إذا ترجمت إلى الواقع تقول إن السلطات الدينية والدنيوية التي استولت على إرادة الشعب وسحبت منه كل مسؤولية هي المسئولة في الدرجة الأولى عن كل الشرور والمساوئ حتى تلك التي يقوم بها الشعب، لأنه لا يملك إرادته أو مسئوليته الذاتية، بل يساق إلى أفعاله سوقا غير إرادي.

إنها أفكار وفلسفة قالها الشيخ في القرن الرابع عشر، ولكنها لا تختلف عن فلسفة علم الاجتماع الحديثة، وكذلك آراؤه الدينية، فهي لا تختلف عن أفكار المدافعين عن حقوق الإنسان في عصرنا هذا، وفي تأويله القرآن ينطلق الشيخ من مبدأ المساواة الإنسانية المطلقة، فالديانات والكتب المقدسة والرسل كلهم متساوون، والناس متساوون وإخوة يغضّ النظر عن دياناتهم ومذاهبهم وعقائدهم أو أجناسهم وألوانهم، وهو يقول إن القرآن كتاب سماوي، نزل على الرسول محمد ليخدم به الإنسانية، ويواكب تطورها لا ليكون حجر عثرة في طريقها، فالقرآن نزل من أجل الإنسان وليس الإنسان من أجل القرآن قد خلق.

ولذا واجه الشيخ معارضة قوية من مشايخ يتكسبون من الدين والتدين وتجارة الفتاوى وتوزيع ألقاب الكفر والإلحاد والشرك والزندقة على طوائف الشعب في الدولة الواحدة، هؤلاء كفّروا الشيخ وقيدوه إلى شجرة ليصلب ويشنق، وهؤلاء المشايخ هم الذين يحاولون جعل الإسلام فوق الديانات الأخرى والمسلمين فوق البشر، وهذا ما أضر بالإسلام والمسلمين، وجعل غير المسلمين ينظرون إليهم نظرة الريبة والشك والحذر في التعامل معهم، بل وصل إلى حد العداء لهم، لأن كل فكر عنصري، وعلى مدى التاريخ، يواجه دائمًا بحزم، ويسقط في النهاية، ويكون سقوطه عظيمًا، فما أحوج الشرق اليوم إلى أمثال الشيخ بدر الدين الذي حذر في ذلك العصر من هذه الفلسفة.

يقول الشيخ بدر الدين عن هؤلاء العنصريين: "إن هؤلاء يحسدون الله على رحمته لكل الناس، ومحبته لهم، ومساواتهم بعضهم ببعض، وإكرامه لهم، إنهم يلطخون اسم الله بالعنصرية والكراهية، إنهم يلصقون به فعل الشرور والإساءات، فما أبعدهم عن قلب الله لأنهم يضعفون إيمان الناس بإله بهذه الصفات، قد يطول ظهور الحقيقة ولكنها تظهر في النهاية ودائمًا".

خاتمة

رفدت الثقافة العلوية الحضارة الإنسانية بفكرها وقيمها وفنونها من جهة، وأتاح لها انفتاحها على هذه الحضارة الاندماج بها بتبني قيمها ومناهجها وقوانينها ولنقرأ في المقابل آراء كتاب ومفكرون عرب ومسلمين بالثقافة العربية الإسلامية السائدة.

يقول د. محمد عبد المطلب الهوني من ضمن ما يقول: عندما نتحدث عن الحضارات بصيغة الجمع لا بصيغة المفرد، نفترض وجود حضارتين أو حضارات عدة تسود العالم اليوم، هذا الافتراض يغذي بعض الأوهام، ومنها الإرهاب نفسه، باعتبار أن الأيدولوجيا الإرهابية تصور نفسها مع الصراع ضد الحضارة الغربية التي تعتبرها مغرقة في الفساد والمادية، وتظن أنها في مواجهة عسكرية مع الغرب تمثل تكرار الحروب الصليبية، فاليوم لا توجد سوى حضارة واحدة هي الحضارة الغربية السائدة في مشارق الأرض ومغاربها، لأن هذه الحضارة تُقدم النموذج الوحيد الممكن في التطور العلمي والتقني والمدني، وهذا النموذج يمثل أفقًا وأرضية لكل مظاهر النشاط البشري في كل أصقاع العالم.

أما الحضارات القديمة مثل الحضارة الفرعونية الآشورية البابلية والرومانية والعربية الإسلامية وغيرها، فإنها إما اندثرت ولم تترك سوى آثار وتراث يكون موضوعًا للدراسة والاستلهام أو تحولت إلى مجرد دراسات غير قادرة على إنتاج نموذج آخر مغاير للنموذج الحضاري الغربي.

ترفض هذه الحضارة تيارات الإسلام السلفي والسياسي المتعاقبة من الإخوان المسلمين في العشرينات إلى الوهابية والتي أصبحت فاعلة ومؤثرة نتيجة الثروة النفطية إلى ما سمي بالصحوة الإسلامية والتيارات التكفيرية الحالية.

لكن الإرهاب وإن كان يمثل العرض المرضي الأكثر خطورة عن علاقة المجتمعات العربية الإسلامية بالحداثة، فإنه يكون دليل ساطع على وجود حضارة واحدة وعلى هيمنة النموذج الغربي على خصومه أنفسهم. إنه خليط كاريكاتوري من الرفض المتشنج للحداثة الغربية ومن الإقبال عليه في الوقت نفسه، إنه رفض لفكرة الحرية التي أتت بها الحداثة ورفض لتكريس شرعة حقوق الإنسان وكل المنجزات المدنية التي تراكمت من خلال المسيرة الإنسانية، إقبال فريد على الحداثة في منجزاتها التكنولوجية والرقمية واستفادة تامة من الأوضاع الجغرسياسية الجديدة التي فرضتها العولمة؛ فالإرهابيون يستعملون أحدث وسائل الاتصال لتنسيق عملياتهم ويستعملون الفضائيات لنشر خطبهم التحريضية،

ويستعملون الإنترنت والأقراص المدمجة للتعريف بغزواتهم وعرض صور عمليات قطع الرؤوس، ويستعملون علم الطيران لتنفيذ العمليات التي تقتل أكبر عدد من البشر.

وربما التجأ الإرهابيون إلى الأسلحة النووية والبيولوجية والكيماوية لتحقيق المزيد من العنف الشامل ومن الدمار، وليست هذه الفرضية مستبعدة، بما أن الإرهابيين يصلون بمبدأ الغاية تبرر الوسيلة إلى أبعد الحدود وبما أنهم يستغلون كل إنجازات العولمة لترويع العالم بأسره. وتُفيد بعض الإحصائيات بوجود أكثر من ثمانين ألف موقع على الإنترنت يوفر معلومات عن طريقة صنع واستعمال القنابل اليدوية والنووية وحتى الكيماوية

وقد أصبح هذا الخطر أشد إلحاحًا بالسنوات الخمس الماضية، فشبكات الجماعات الإرهابية العابرة للحدود الوطنية أصبحت عالمية النطاق وغدت تجعل من التهديد العالمي قضيتها المشتركة. إن تلك الجماعات تُفصح عن رغبتها في اكتساب الأسلحة النووية والتكنولوجية والكيميائية، وفي استخدامها لإيقاع عدد كبير من الخسائر وفي مقدور هجوم واحد من ذلك القبيل، وما قد يترتب عنه من أحداث متسلسلة أن يغير وجه العالم إلى الأبد.

إن الإرهاب الجديد إذا ليس خطرًا على التفاهم بين الشعوب وحسب، بل هو خطر على حياة الشعوب نفسها، الإرهاب القديم

يُمثل في الغالب ظاهرة معزولة في المجتمعات بحيث يكون عدد الناس الذين يقومون به أو يساندونه عددًا محدودًا نسبيًا، لا تكاد تتجاوز عملياته إطار الدولة الواحدة، أما الإرهاب الجديد فهو إرهاب دولي عابر للبلدان، وهو عابر للبلدان من حيث جنسيات مرتكبيه ومن حيث أنه يطال كل البلدان، ومن حيث أنه يجد تعاطفًا من قبل قطاعات عريضة من الجاليات العربية في البلدان الغربية، ومن قبل الكثير من المواطنين الحاصلين على جنسيات في هذه البلدان.

إن كان الإرهاب الجديد يلقى تعاطفًا في العالم الغربي، فما بالك به في العالم العربي، فهو وإن قامت به قلة قليلة من الناس فإنه يجد المساندة والمناصرة من شرائح كثيرة داخل المجتمعات العربية، بل ويمكن أن نقول إنه يحظى بشيء من الشعبية، وخاصة عندما يستهدف غير العرب ومن يعدون أعداء. وما يدل على التبجيل الذي يحظى به الإرهابيون أن بعض قادته ممن تسبب في مقتل مئات الأبرياء في العراق أقامت أسرهم سرادقات لا لتقبل العزاء، بل لتقبل التهاني على ما قام به أبناؤهم من أعمال يعتبرونها جليلة.

والأدهى والأمر، هو أن للإرهاب في بلداننا أقطابه الذين يفتون له من أعلى منابر المساجد وله إعلاميوه الذين يتفننون في تمجيده بين الناس في الفضائيات العربية، وله كُتَّابه على صفحات

الدوريات الأكثر انتشارًا، وبعض المحرضين على الإرهاب مثل الشيخ يوسف القرضاوي الذي يستقبله المسئولون الحكوميون والممثلون عن المنظمات الدولية ويدعونه إلى الملتقيات بكل إكبار وتبجيل، وبعض إعلاميي الإرهاب يفسح لهم المجال على القنوات الفضائية مثل السيد عبد الباري عطوان الذي لا يتورع عن الإشادة بأمجاد الشيخ بن لادن، وأمجاد الحركات التي تستهدف المدنيين في الأراضي المحتلة وإسرائيل.

ورجال الدين عندنا ما زالوا يقسمون العالم إلى دار إسلام ودار كفر، ومازالوا يتحدثون عن الولاء للمسلمين والبراء من الكفار، ويقولون بأن الدين الوحيد الحق هو الإسلام وما عداه شرائع نسخت في الشريعة المحمدية وما إلى ذلك من مظاهر عبادة الذات، هؤلاء الفقهاء هم الذين يشرعون للإرهاب بقولهم إن الجهاد فريضة قائمة إلى يوم الساعة فيحرضون الشباب المسلم على النحر والانتحار.

وأخيرا وليس آخرًا، فإن الإرهاب الجديد يجد تربة خصبة في مجتمعات لا تنبني على الحوار الديمقراطي بل على نظرية الغلبة وقوة الشوكة، ولا تعرف غير البطش والتنكيل في حل مشاكلها الداخلية، فالحاكم واحد لا شريك له، وتفسير المعتقدات والنصوص المقدسة واحد لا تجوز مخالفته وحرية التعبير من اختراع الآخر الذي يتربص بنا الدوائر، وإخضاع الأقليات من الثوابت التي لا

محيد عنها، وقهر النساء والأقليات وإقناعهم بدونيتهم جزء من الهوية الوطنية، والإعلام لا يكون إلا تمجيدًا للذات وتزييفًا للوعي ونشر الهذيان الشديد وجنون العظمة والذي يتصور أن كل العالم ضده وكل العالم يتآمر عليه، بل ما نقول في مجتمعات تُصر على عدم إصلاح منظوماتها التربوية باسم السيادة الوطنية، وتصر على تدريس مواد الجهاد وأحكام أهل الذمة والبراء والولاء، وتدعم نشر الكتب الإرهابية التكفيرية بل وتسند الشهادات العليا لمن يتصدر بالتكفير إلى مئات المفكرين والكتاب العرب؟ ألم تسند جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، على سبيل المثال، شهادة الدكتوراه بامتياز لشخص يقول عن مفكري الحداثة وكتابهم وشعرائهم إن "أقوالهم وأعمالهم وعقائدهم التي أذاعوها توجب الحكم عليهم بالردة، أي تبيح دماءهم".

ويقول الدكتور عبد الحميد الأنصاري: يعيش زعماء الأصولية في لندن – هذه الأيام – وضعًا صعبًا مُقلقًا، بعد أن اتخذت الحكومة البريطانية سلسلة من التشريعات والقوانين والإجراءات ووقّعت عدة اتفاقيات وغيَّرت بعض قوانين الهجرة، تمهيدًا للتخلص نهائيًا من الأصوليين الأجانب بتسليمهم إلى بلادهم التي كانت تُطالب بهم على امتداد عقدين من الزمن، وأما بالنسبة إلى مواطنيها المتشددين من أبناء البلاد الذين لا يمكن طردهم إلى دولة أخرى فستكون هناك إجراءات معينة تضع حدًا لنشاطهم عبر ملاحقتهم

واحتجازهم وتوجيه تهم الخيانة لهم، لسان الحال يقول انتهت اللعبة، تلك اللعبة الطويلة التي بدأت قبل عشرين سنة من استضافة الأصوليين في العاصمة البريطانية باعتبارها قلعة التسامح في العالم، وبمقتضى هذا التسامح وتحت مسمى حق اللجوء الإنساني كانت بريطانيا تستقبل كل من هب ودب من المتطرفين والمنشقين والمعارضين والمناضلين ضد دولهم وكانت تحتضنهم وتؤمّن لهم كل وسائل الراحة والحياة الكريمة وتحميهم وتُحيطهم بالرعاية وتمنحهم الجنسية، وتدعهم يمارسون أنشطتهم ضد دولهم فيتلقون الأموال بهدف التخطيط والتآمر ضد أنظمة حكم عربية، وكانت لهم مطلق الحرية للتحريض وبث الكراهية عبر الخطب النارية ومراكز التطرف الإعلامية والمساجد والمدارس والمكتبات وفي وسط تجمعات أبناء الجالية الإسلامية، وتم شحن نفوسهم بمفردات الكفر والجهاد والولاء والبراء ومشروعية استخدام العنف باسم الدين، ومما ساعد على ترويج ثقافة الكراهية والعنف تلك الفضائيات التي ما زالت تستضيف رموز التطرف لتجعل منهم نجومًا جماهيرية تستقطب الشباب، بالأمس القريب كان الأصولي السوري – عمر بكري– زعيم "المهاجرون" السابق و"الغرباء" حاليًا، يصول ويجول عبر الفضائيات يهدد ويتوعد قائلاً: إن بريطانيا أصبحت دار حرب، وفي هذه الدار لا يوجد شيء مقدس للكفار أو ممتلكاتهم، وأن النصر سيكون للقاعدة وفروعها في العالم وعلى المسلمين

الانضمام إليها. وقد وصل الجحود ونكران الجميل لهذا البكري أنه قال لو علمت بأن هناك مسلمين سيشنون هجمات في لندن فلن أبلغ عنهم هل هذا جزاء من آواه وآمنه من جوع وخوف؟! بريطانيا أعطت هذا البكري حق اللجوء منذ أن استقر بها هاربًا من بلده سوريا منذ عشرين سنة ومنحته من المخصصات الاجتماعية (٢٧٥) ألف جنيه.

السؤال: لماذا سلكت بريطانيا سياسة استرضاء الإرهابيين؟ هل كانت لندن تعتقد أنها بسياسة الاسترضاء تحمي مصالحها كما فعلت وما زالت دول عربية وخليجية أم لأنها تري نفسها قلعة الحريات ولا بد لها من حماية حرية كل صاحب رأي وقضية؟! وهل التحريض على القتل باسم الجهاد حرية رأي؟! لماذا لا تزال الساحة العربية متعاطفة مع طروحات القاعدة؟!

ويقول السيد سعد الله خليل: إلى متى سنستمر في دفن رؤوسنا في الرمال، متوهمين أن العالم جاهل مغفل، لا يعرف شيئا عنا؟ إلى متى نخدع أنفسنا؟ كم سنكون مغفلين لو توهمنا أننا بالتصريحات والبرقيات قادرين على إقناع العالم ببراءة فكرنا وثقافتنا من الإرهاب، وإنهم يصدقوننا! لماذا إذن تتنامى يومًا عن يوم مشاعر الكراهية ضد المسلمين في الغرب الذي كان قد احتضنهم من قبل وآواهم وأمنهم من خوف ومن مرض ومن جوع؟ لماذا انقلب هذا التسامح مع المسلمين والعطف عليهم، إلى

كراهية لهم، وخوف منهم، وحقد عليهم؟ هل من سبب آخر سوى الإرهاب؟ هل من سبب آخر سوى كراهية هؤلاء القتلة، وعداءهم للمجتمعات الغربية التي يكفرونها ويهدرون دمها ويحللون سرقة أموالها؟ ما هي المرجعية الفكرية والروحية التي يستند إليها هؤلاء القتلة في تجنيد الرجال وتعبئتهم وتحريضهم وتبرير أفعالهم؟ هل يستندون إلى نصوص بوذية أو هندوسية؟ أم يستندون إلى نصوص دينية إسلامية؟

من يُفتي لهؤلاء الإرهابيين، ويبرر أعمالهم، ويشجعهم على الذبح والقتل والتفجير، ويؤكد لهم أن ثوابهم في الآخرة كبير، ويبشرهم بحوريات وأنهار من خمر وعسل؟ أليسوا شيوخًا من المسلمين لهم أوزانهم وأسماءهم ومراكزهم الكبيرة؟ من أين يأتي هؤلاء المشايخ بالأسانيد التي يسندون إليها فتاواهم؟ هل يخترعونها من فراغ؟

هل يوجد شيخ أو هيئة دينية إسلامية تنفي عن هؤلاء القتلة وعن زعيمهم الانتماء للإسلام؟ ألا يطلقون على بن لادن صفة الشيخ وأحيانا الشيخ المجاهد؟ ألا يجدون العذر والتبرير دائمًا لهؤلاء القتلة، ويصفونهم بالمجاهدين والمجتهدين، فإن أصابوا في اجتهادهم فلهم أجران، وإن أخطأوا فلهم أجر واحد! هل هناك من تأييد وتعاطف وإعجاب أكثر من ذلك؟

وإنهم في عملياتهم يستندون إلى آيات بينات تأمرهم أن يُرهبوا أعداء الله، وأن يضربوا رقاب الكفار، وأن يقاتلوا المشركين الذين لا يحرموا ما حرم الله ورسوله، ويقتلوهم حيثما وجدوهم حتى يعطوا الجزية وهم صاغرون. وإلى أحاديث يؤكدون أنها تقول إن الله قد أمر الرسول أن يقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. وإنهم على خطى الرسول سائرون، ومستعدون لمناظرة من في عقله شك أو لبس فيما يقولون ويفعلون. (يقول محمد عبد السلام فرج في مقدمة كتاب الجهاد الفريضة الغائبة: اعلموا أحبتي... أن ليس بعد إعلان التوحيد عمل أعظم وأجَلّ في ميزان العبد من السعي لإقامة الدين حتى لا يكون إلا لله، وذلك بالجهاد والقتال لقول تعالى: "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله".

ويتابع سعد الله خليل قائلاً: إن الإسلام لم ينتشر بالسيف وهذا قول باطل ردده عدد كبير ممن يبرز في مجال الدعوة الإسلامية والصواب يجيب عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما سئل (أي الجهاد في سبيل الله): (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله). وقول الله سبحانه وتعالى: "فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد".

يقول الدكتور عبد الخالق حسين: يُخطئ من يعتقد أن الإرهاب الإسلامي المستفحل اليوم هو وليد الساعة ورد فعل للاحتلال الأجنبي لأفغانستان والعراق والقضية الفلسطينية أو المشكلة الشيشانية إلخ, كما يُخطئ من يعتقد أن الذين ينفذون عمليات الإرهاب هم جماعة من الجهلة والمهمشين المحرومين من فقراء المسلمين ليس لديهم أية وسيلة أخرى للتعبير عن معاناتهم وتحقيق طموحاتهم في العيش الكريم سوى اللجوء إلى قتل الناس الأبرياء بتفجير أنفسهم ويُخطئ أيضًا من يعتقد أن الإرهاب هو مشكلة أمريكية فقط، والأهم من كل ذلك يُخطئ من يعتقد أن رجال الدين المسلمين المعتدلين وغير المعتدلين لا علاقة لهم بهذا الإرهاب المتفشي وأنهم بريئون منه ومن الإرهابيين.

والدليل إن الإرهاب ليس وليد الساعة بل نتيجة التربية الخاطئة والتثقيف الخاطئ وفق التراث العربي الإسلامي لعشرات السنين ابتداء من العائلة والمدرسة وتعاليم أئمة الجوامع إلى الجامعة، وإنما جاءت الثمار الفاسدة الآن لتوفر الشروط المناسبة، فالاحتلال الأجنبي ليس سببًا للإرهاب لأن أغلب البلدان العربية وبلاد العالم الثالث كانت محتلة في عهد الاستعمار في أوائل القرن العشرين ولم تلجأ حركات التحرر الوطنية في نضالها ضد الاستعمار إلى الإرهاب بخطف المدنيين وقتل الأطفال وتفجير المؤسسات الاقتصادية كما يجري اليوم في العراق وغير العراق.

الإرهاب ليس مشكلة أمريكية فحسب لأنه طال العالم كله، فلم يسلم منه حتى العمال النيباليين الفقراء الذين ذبحوا ذبح النعاج، إضافة إلى أن هناك ملايين من الفقراء والأميين والجهلة في العالم لم ينزلقوا إلى الإرهاب الذي نشاهده اليوم والمرتبط كليًا بالعرب والمسلمين، إذا لم يبق هناك سبب للإرهاب يُميزنا، عن بقية العالم سوى التربية والثقافة العربية الإسلامية، ودور رجال الدين وسيطرتهم شبه الكاملة على المجتمع فلو راجعنا ثقافتنا العربية السائدة في معظم البلاد العربية خاصة والبلاد الإسلامية عامة لوجدنا فيها قواسم مشتركة تتركز حول الادعاء باحتكار الحقيقة، وإلغاء الآخر المختلف، وتكفير من يختلف عنا في الدين والمذهب والفكر، واحتقار الحياة وتمجيد الموت والعنف، والنظرة الدونية للمرأة، ومعاداة الحداثة والديمقراطية والفنون الجميلة.

هذه الثقافة التي تدعو إلى العزلة ورفض الانسجام مع العالم المتحضر ومعاداة ما تنتجه الحضارة البشرية من منجزات ثقافية وإنسانية ووصفها بالأفكار الدخيلة والمستوردة بحجة الحرص على أصالتنا وخصوصيتنا وتراثنا المجيد.

وهناك آيات تدعو للعنف أو كما يسميها البعض آيات السيف ومنها على سبيل المثال: "أيها النبي حرض المؤمنين على القتال"، "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو

الله وعدوكم"، "قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم وينصركم عليهم ويشفي صدور قومًا مؤمنين".

فأنصار مقتدى الصدر (قائد شيعي) فعلاً قتلوا سكان قرية في العراق لأنهم على غير دينهم، كما قاموا مع غيرهم من الإرهابيين بقتل المندائيين والمسيحيين. وآيات الله كاظم الحائري أفتى بقتل اليهود في العراق.

أما الدكتورة رجاء بن سلامة فتقول: الإرهاب الانتحاري الجديد ظاهرة إعلامية فهو ليس حدثًا فحسب بل حدث - صورة يقع أمام كل الأنظار وينقل عبر وسائل الاتصال في الزمن الواقعي، فلإعلام مكون من مكونات الحدث الإرهابي من شأنه أن يضاعف طاقته في إنتاج الرعب، أو الخوف الجماعي إلا أن من مفارقات الرعب إنه يولّد في الوقت نفسه، وحتى لدى المستنكرين إياه، متعة مبهمة تُضاهي متعة المشاهدين لأفلام الرعب والعنف وإسالة الدماء. مما يجعل الإعلام سيفًا ذا حدين ينقل المعلومة ويسمح بانطلاق العواطف الملتبسة والاستيهامات السادية من عقالها، ومما يجعل بعض المفكرين يتساءلون اليوم عن مدى شرعية "استخدام آلام الآخرين" من قبل الإعلام، ويُذكّرون بالدور الأخلاقي المناط بعهدته، فالصورة ليست خبرًا في حدّ ذاته، بل هي أداة يجب أن يصاحبها التحليل النقدي ويجب أن تنزل في سياقها، هذا الحذر من الصورة ومن الشاشة، من هذه العين الكبيرة التي نظن أننا ننظر

إليها فإذا هي تنظر إلينا وتتعقبنا، هو الذي أدى إلى إعادة النظر في وظيفة الإعلام في سياق تنامي الإرهاب المعولم، وأدى إلى المطالبة بالمزيد من التفكير في مواثيق شرف المهنة الإعلامية. نجد صدى لهذا الحذر في الإعلان الأوروبي "لحرية التعبير والإعلام في وسائل الإعلام في سياق مناهضة الإرهاب "المعتمد في مجلس وزراء المجموعة الأوروبية بتاريخ ٢ مارس ٢٠٠٥. فهذا الإعلان إذ يدعو إلى التمسك بحرية التعبير والإعلام، وبحقوق الإعلاميين في الحصول على المعلومة ونقل الخبر وعدم الكشف عن المصادر.. يدعو الإعلاميين أيضًا إلى القيام بدورهم في الوقاية من "خطاب الحقد" والتحريض على العنف، وينبههم إلى ضرورة الامتناع عن تحويل وسائل الإعلام إلى منبر للإرهابيين، بحثًا عن مجرد الإثارة وعن السبق الإعلامي.

وتركيزنا على الدور القيمي والأخلاقي للثقافة والإعلام يعود أولاً إلى طبيعة الإرهاب، فالفعل الإرهابي فعل لا أخلاقي بالأساس لا يمكن أن تحد من لا أخلاقيته القضية التي يهدف إليها مهما كانت مشروعة أو نبيلة، لا شك أن لا أخلاقيته تعود إلى اعتماده المفاجأة والغدر، ولكنه عمل لا أخلاقي لسبب أساسي هو أنه قتل أعمى، ولا يميز بين مدني وغير مدني، وبين محارب وغير محارب، إنه قتل ينفي البشرية عن البشر المستهدفين، أي يُزيل الحرمة عن الجسد البشري ليصنع "المجزرة" بالمعنى الاشتقاقي

لهذه الكلمة: أي ليحول الأجساد ذات الحرمة إلى أكداس من اللحم، قابلة للاستهلاك الفروجي المنتج للرعب على نطاق واسع، والعمل الإرهابي لا أخلاقي في نتائجه أيضا فهو يُزيل الثقة بالقانون وبالعدالة ويهدد الحياة الديمقراطية، ويستدعي رد فعل انتقامي سيبدو غير عادل.

إننا ما زلنا نقف من العالم موقف الصدام لنرمي في.وجهه بالشعار النسبوي التقليدي: ما تسمونه إرهابًا نسميه مقاومة، إننا نعطل التفكير القيمي من أجل التباكي والصراخ والاستماتة في لعب دور الضحية ونقلب المعايير الأخلاقية باسم الحق في المقاومة.

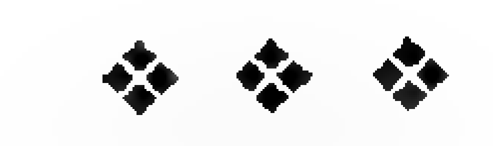
بعض المنابر العربية تُفسح مجالاً واسعًا للإرهابيين أنفسهم عن طريق العرض المتكرر للتسجيلات التي يرسلون بها، وتفسح المجال لخطابات تمجد الإرهاب صادرة من شخصيات إعلامية وثقافية مرموقة من حيث الحظوة والشهرة، فمن رئيس تحرير صحيفة يومية معروفة (عبد الباري عطوان) يُطلق على بن لادن لقب الشيخ ويبرر تفجيرات القاعدة، ومن مدير مركز أبحاث بلندن يُعلق على تفجيرات قطارات الأنفاق بلندن (هاني السباعي – مدير مركز المقريزي) قائلاً: إنه لو ثبت أن تنظيم القاعدة قد دبر هذه التفجيرات فعليه أن يفخر لأنه مرغ أنوف كبار الدول.

الذي لا يشعر بحرمته كبشر ذو كرامة، قد لا يشعر بحرمة البشر الآخرين وحرمتهم، ومن لم يتمتع بالمواطنة وبالحقوق المدنية قد لا يستهدف المدنيين الأبرياء لأنهم يمثلون العدو الكريه فحسب، بل لأنه هو نفسه لا يتصور معنى المدني والحقوق المدنية. والإرهاب إلى ذلك ثمرة سوداء من ثمار العجز عن قبول الحداثة والعجز عن إيجاد اللغة التي تفكر بها المجتمعات الخارجة من مرافئ التقليد في مصيرها الجديد، فتلجأ إلى وهم نرجسي قاتل يتحد فيه النموذج بالأصل، لتُصبح الممارسة السياسية هذيان عودة مستحيلة إلى الماضي، ولا شك أن مقاربة التحليل النفسي مفيدة في هذا الاتجاه، لأنها تُبين علاقة الإرهاب الانتحاري الإسلاموي بظهور ما يسميه فرويد "الإله المظلم" المؤثم إلى أبعد الحدود والمطالب إلى ما لا نهاية له من التضحيات. إن الأوهام النرجسية تخلق للأفراد حاجة مرضية إلى تحقيق أهداف قصوى وغير واقعية، وتؤدي إلى انفصال دوافع الموت عن دوافع الحياة.

أصبحت مقاومة المحتل التعلة التي يلجأ إليها المعلقون السياسيون لتمرير الأعمال الإرهابية ويلجأ إليها بعض الدبلوماسيون العرب للحيال دون إيجاد تعريف دولي للإرهاب، ولتعطيل عمل المجموعة الدولية، وفي تقرير حديث العهد للأمين العام للأمم المتحدة ما يبطل هذا الجدل المفتعل: لقد آن الأوان لكي ننحي جانبًا المناقشات المتعلقة بما يدعى إرهاب الدولة، فاستخدام القوة من قِبل الدول

منظم فعلاً وعلى نحو شامل بموجب القانون الدولي، ويجب أن يفهم الحق في مقاومة الاحتلال بمعناه الصحيح، إذ لا ينبغي أن يتضمن الحق في قتل المدنيين أو تشوههم عمدًا، وأنا أؤيد تأييدًا تامًا دعوة الفريق الرفيع المستوى إلى وضع تعريف الإرهاب يوضح الإرهاب هو أي عمل، إلى جانب الأعمال المحظورة فعلاً في الاتفاقيات القائمة، يراد به التسبب في وفاة مدنيين أو أشخاص غير محاربين أو إلحاق إصابات جسمانية خطيرة بهم، بهدف ترويع مجموعة سكانية أو إرغام حكومة أو منظمة دولية على القيام بأي عمل أو الامتناع عنه، وأحث بقوة قادة العالم على تأييد ذلك التعريف، وإبرام اتفاقية شاملة لمكافحة الإرهاب.

ولعل هذا التعريف من الوجاهة بمكان فهو لا يُحدد الفعل الإرهابي طبقًا لنوعية العنف أو أسبابه بل طبقًا لنوعية الضحايا، ويصنفه ضمن الأفعال الإجرامية وجرائم الحرب، فيجنب اللجوء إلى الشعار النسبوي: ما تسمونه إرهابًا نُسميه مقاومة.



فهرس


شمس
ش
للنشر والتوزيع
(+٢) ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤   (+٢) ٠١٨٨٨٠٠٦٥
www.shams-group.net

من نافل القول أن تركيا لا تعترف بحقوق الأقليات القومية والدينية من أكراد وأرمن وعلويين وغيرهم، وتزداد الصورة وضوحًا عندما ندرك أن أحد الأسباب الجوهرية لعدم اعتراف السلطات التركية بهذا الطيف الإثني والديني المتعدد يكمن في انعدام الممارسة الديمقراطية وتغييب حقوق الإنسان هناك.

تاريخياً، أدَّت الضغوط العثمانية من جهة، وضغوط الدولة التركية الحديثة من جهة أخرى، إلى بروز الهوية العلوية الأناضولية وتناميها باطراد. وبدأت حركات ومنظمات علوية وكوادر مثقَّفة بطرح مطالبها جهارًا وعلانية، بعد أن ظلَّت ردحًا من الزمن تمارس فيها مبدأ "التقية"، على الرغم من أساليب القمع والتهميش المختلفة التي تمارسها السلطات التركية بحقها. حتى أن دول المجموعة الأوروبية بدأت تعي مشاكل هذه الأقلية المضطهدة، وأهمية الدعم والتأييد لمطالبها المشروعة.

في المقابل، بدأت الأقلية العلوية تحصل على تأييد متزايد في النطاق الأوروبي، وتكسب عددًا من المؤيدين لمطالبها، خصوصًا أن الثقافة العلوية وفكرها وتعاليمها تؤكد على التزامها الديمقراطية كنهج، وحقوق الإنسان ك... تمقت العنصرية والعنف ولا تحتكر الحقيقة، وبالتالي تعكس نموذجًا ... الثقافة الشرقية التي تسعى إلى التكامل مع غيرها من الثقافات.

وإننا إذ نتقدم بهذا البحث العلمي للقارئ الكريم، نتمنى أن يثير النقا... الإصلاح الديني والتصالح الاجتماعي، ولإجراء المصالحة الفكرية بين... والعلمانية، نبذًا للتزمت الديني وللابتزاز المتبادل للإسلام بين النظ... الدين المتشددين على اختلاف درجات تشددهم، على أمل أن يكون ... متواضعاً للدراسات الأنثروبولوجية المستقبلية التي تحتاجها أدراج... العربية الحديثة.


ISBN 9789774930317
9 789774 930317